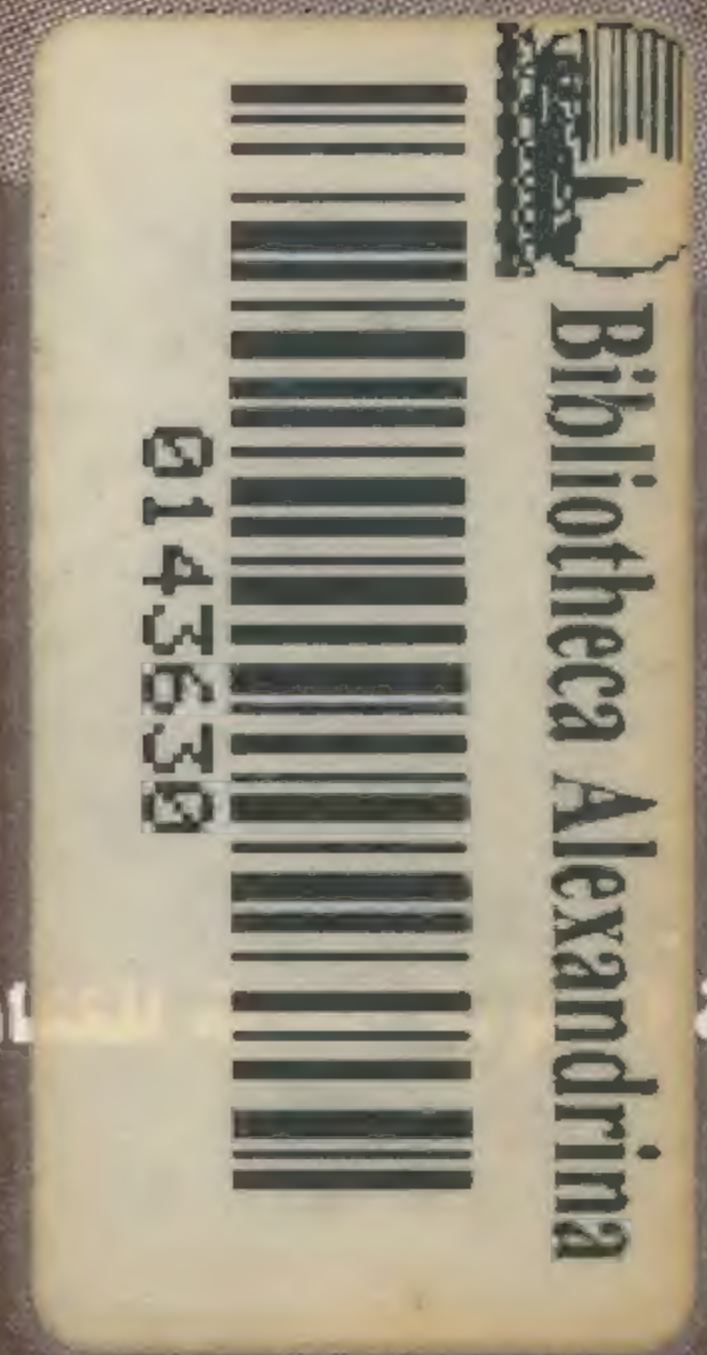


بيرتراند راسل

السلطة والفكر



ترجمة: د. لطفية عاشور



السلطة والفكر

الألف كتاب الثاني

الإشراف العام
و. سمير سرحان
رئيسة مجلس الإدارة

رئيس التحرير
لمنعي المطيعي

مدير التحرير
أحمد صليحة

الإشراف الفني
محمد قطب

الإخراج الفني
لمياء محرم

برتراند راسل

السلطة والفكر

ترجمة

د. لطفية عاشور



المكتبة الوطنية التابعة لوزارة التعليم

١٩٨٤

هذه هي الترجمة العربية الكاملة لكتاب :

Authority and The Individual

Bertrand Russel

الفهرس

الصفحة

٧	• • • • •	مقدمة المترجمة
١١	• • • • •	كلمة الناشر
١٥	• • • • •	التماسك الاجتماعي والطبيعة البشرية
٢٩	• • • • •	التماسك الاجتماعي والحكومة
٤٥	• • • • •	دور الفردية
٥٩	• • • • •	الصراع بين التقنية والطبيعة البشرية
٧٩	• • • • •	التحكم والسبق ومجالات كل منهما
٩٥	• • • • •	الأخلاقيات الفردية والاجتماعية

مقدمة الترجمة

أقبلت على قراءة هذا الكتاب ثم ترجمته تحت تأثير موضوعه الشيق والمهم بالنسبة لمجتمعنا وظروفنا الحاضرة - نفس أهميته لأى مجتمع سابق أو لاحق .

وهو سادس كتاب لبرتراند راصل المفكر العظيم والأديب والعالم وداعية السلام - الذى استمر عطاؤه القيم والغزير فى مختلف فروع المعرفة قرابة ثمانين سنة .

وقد ظهر الكتاب فى منتصف القرن الحالى فى انجلترا ، أولا على صورة محاضرات للأذاعة البريطانية - ويقول التقديم للكتاب « واذا كانت هذه المحاضرات مفيدة لموضوع ساعتها عند بدء تقديمها فلا بد وأن تكون كذلك وأكثر بالنسبة لوقتنا الحاضر وظروفنا الراهنة » .

ويهدف الكتاب كما يقرر راصل للتوصل الى امكانية « الجمع بين قدر من السبق الفردى الضرورى لكل تقدم ، وقدر من التماسك الاجتماعى اللازم لأجل البقاء » .

ورغم أن راصل غنى عن التعريف فلا بد من نبذة عن حياته الحافلة المعاصرة : فقد ولد سنة ١٨٧٢ وتوفى سنة ١٩٧٠ فى الثامنة والتسعين . وكان فيلسوفا وأديبا وعالما ، أثرى المعرفة الانسانية ، وانتشر عطاؤه فى أنحاء العالم على شكل كتب ومقالات وعلم النفس والاقتصاد والسياسة والرياضيات ٠٠٠ الخ وزادت مؤلفاته عن الخمسين . وكان آخرها كتابه تحليل العقل وهو مكتوب بجودة فائقة رغم أن مؤلفه كان قد جاوز الخامسة والتسعين .

وقد ولد فى ويلز كحفيد لايرل راصل الأول ، وتلقى تعليما خاصا ، ثم التحق بجامعة كيمبردج ، وعين بعد تخرجه فى كلية ترينيتى ، ثم انتقل الى لندن واستقر بها ليتفرغ للعمل الاجتماعى والسياسى - فكان له نشاط برلمانى - كما كان من دعاة السلام ، وكان عضوا فى لجنة المائة لمناهضة التسليح الذرى - واشترك مع أينشتاين فى التحذير من الأسلحة الذرية والنووية ، والدعوة لنبذها . وقد حكم عليه لذلك بالسجن والغرامة مرتين ، كانت الأخيرة وهو فى التسعين من عمره ،

وبيعت مكتبته للوفاء بالغرامة . ولم يلوه كل هذا عن الاستمرار في دعوته
لإفناء الأسلحة الذرية والنووية - تلك الدعوة التي تحققت أخيرا بعد
وفاته بربع قرن تقريبا .

وكانت آراؤه وحياته وعلاقاته الخاصة غير تقليدية ، أثارت اعتراض
المجتمع المحافظ . وقد تزوج ثلاث مرات وطلق مرتين - وأصبح أبا لأول
مرة بعد الخمسين ، ورزق بولدين وبنت ، أحبهم كثيرا وتفانى في تربيتهم
وتعليمهم - حتى لقد أدار مدرسة حديثة لتعليمهم مع آخرين . وقال
راصل ان التعليم السليم يجب أن يشجع الأطفال على التفكير المستقل
وعلى الابداع ، وأن يتيح لهم مزيدا من الحرية . وعندما كبر أولاده قرر
أنه يفضل تعليمهم في جامعة شيكاغو على أوكسفورد أو كيمبردج . وقد
ورث ابنه لقب إيرل بعد وفاة والده ، الذي كان قد ورثه بعد وفاة أخيه
سنة ١٩٣٩ ، ولكنه لم يستعمله .

ومن مفارقات حياة راصل أنه رغم كل ما لاقاه من معارضة ومحاكمة
وسجن ، إلا أنه نال أعلى درجات التكريم والتقدير . فبالإضافة الى لقب
إيرل حصل على وسام الاستحقاق سنة ١٩٤٤ ، وعلى جائزة نوبل في
الأدب سنة ١٩٥٠ - وكان قد عمل في الجامعة ولكنه فصل منها بسبب
سجنه السياسي - وألف وهو في السجن كتابه أسس الرياضيات وهو
مرجع مهم .

وقد حاضر في جامعات فرنسا والولايات المتحدة والصين ، وزار
الاتحاد السوفيتي سنة ١٩٢٠ ، ولكنه عبر بعد عودته عن امتعاضه
الشديد ، لما وجدته هناك من « بيروقراطية مستبدة » على حد قوله .

وكان راصل عضوا في حزب العمل ، ولكنه مزق بطاقة عضويته
اعتراضا على دور الحزب في حرب فيتنام . وقبل وفاته بيوم واحد في
فبراير سنة ١٩٧٠ شجب اعتداء الطيران الاسرائيلي على مصر - بعبارات
واضحة ومنطقية وعادلة .

وتكون رسائله العديدة لصديقه أوتولين مجموعة لها
طبيعة العمل الفني - قد استعملت في كتابة سيرته بعد
وفاته - كما كتب هو سيرته الذاتية التي نشرت بعد وفاته - وقرر فيها
أن وفاة والديه وهو في سن مبكرة جعلته حساسا وقلقا ، وفي حاجة
ماسة للاستقرار ولقاعدة آمنة .

وقد صادف راصل صعوبات مالية في بعض فترات حياته - وحقق
عمله بالصحافة والمحاضرات بالولايات المتحدة دخلا أوفر مما حققه عمله
في التأليف الأكاديمي .

ويتضح من كل ما تقدم أن راصل كان مثالا للفردية من حيث تطلعه للسبق والمبادرة وحرية الرأي - وأنه عانى كثيرا من السلطة - كلمة تعارض نشاطه السلمى الانسانى مع سعيها للتفوق والتماسك والضمود . ولهذا فكتابه السلطة والفرد ليس فقط نتاج بحث وتفكير - بل هو أولا نتاج تجارب شخصية .

ورغم صغر الكتاب نسبيا فانه يقدم كما وفيرا من الحقائق العلمية والآراء الصائبة عن مختلف فروع المعرفة والأنشطة البشرية . ويتناول المجتمع البشرى من كل نواحيه وفى فترات نموه وتطوره . ويخلص من كل هذا الى قرارات رشيدة ومتزنة ونظرة مستقبلية متفائلة .

ويقول راصل عن خطته :

« وسأبدأ بالحوافز البشرية التى تجعل التعاون الاجتماعى ممكنا . . . وبعد ذلك سأبحث درجة وقوة التماسك الاجتماعى فى أزمنة وأماكن مختلفة ، لنصل لمجتمعات العصر الحاضر - واحتمالات مزيد من التطور فى المستقبل القريب . . . وبعد ذلك . . . سأتناول الجانب الآخر فى حياة الانسان . . . وأعنى بالتحديد السبق الفردى ، مع بيان الدور الذى لعبه فى حلقات التطور البشرى المختلفة ، والدور الذى يلعبه فى الوقت الحاضر - والامكانات المستقبلية ، للكثير أو القليل منه فى الأفراد والجماعات . . . وأخيرا سأبحث كمسألة أخلاقية ، كل علاقة الفكر والجهد والتصور الفردى بسلطة المجتمع » .

ويورد راصل فى بحثه حقائق مهمة وطريفة عن التطور البشرى بيولوجيا منذ آلاف السنين ، وإلى دور الحوافز الهمجية الموروثة فى السلوك البشرى حتى عصرنا الحاضر - وإلى أسباب الحروب وتطورها - وإلى دور الخوف داخليا أو خارجيا كعامل اندماج واطاعة - وإلى أثر العقيدة والقومية فى التماسك والتفوق . كذلك يقرر راصل :

« نحن نعلم أن أى حياة تحيد ، أكثر من اللازم ، عن الدافع الطبيعى ، لابد وأن تؤدي الى حالات توتر ، يمكن أن تتساوى فى مساوئها مع ما كان يحتمل أن ينشأ من مساوىء نتيجة لاشباع الرغبات المحرمة » .

« والناس الذين يعيشون حياة غير طبيعية . . . يمكن أن يضمروا الحقد والحسد وسوء النية ، وكل ما يتعارض مع الخير . . . » .

ويضيف راصل بعد ذلك :

« وأثناء محاولة إيجاد حل لهذه المشكلة ، علينا أن نتذكر دائما ، أنه بالرغم من أن طريقة حياتنا وقوانيننا ، ومعرفتنا ، قد تعرضت جميعها

لتغييرات جذرية ، فان غرائزنا للخير والشر تبقى (الى حد كبير) كما كانت ، عندما وصلت أمخاخ أجدادنا الى حجمها الحالي في الوقت الحاضر ، (وكان قد أوضح قبلا أن ذلك قد حدث منذ مليون سنة تقريبا !!) .

ويحذر راصل قائلا « . . . لا يجوز لنا أن نحاول الغاء التنافس ، ولكن علينا فقط أن نعمل على ألا يتخذ أشكالا تؤدي الى اصابات بالغة » .
ويعلن راصل في أسي « كان من سوء الطالع أن تقدم الجانب الهدام ، للتكنولوجيا ، بسرعة أكثر من الجانب البناء . . . » .

وبعد فالكتاب مشوق ودقيق وجدير بمؤلفه العظيم ، وفي متناول كل مستويات القراء . ولو أن ادراك مؤلفه العميق والغزير يجعل بعض عباراته طويلة ومركبة ، وقد شكل هذا الأمر صعوبات جمة في الترجمة ، كما أنه يتطلب قراءة متأنية ومدققة .

كذلك يشير المؤلف الى شخصيات وبلاد وأماكن ونظم حكم وآثار معروفة لقرائه في الغرب - وقد حرصت على تبسيطها وتوضيحها بقدر الامكان ، وأضفت ايضاحات بالهوامش لهذا الغرض في آخر الكتاب .

د . لطيفة عاشور

كلمة الناشر

يتكون هذا الكتاب من محاضرات برتراند راسل
المفكر والكاتب الكبير في منتصف القرن الحالى فى انجلترا .
واذا كانت فائدة هذه المحاضرات موضوع الساعة عند بدء
ظهورها ، فلا بد وأن تكون كذلك وأكثر بالنسبة لوقتنا
الحاضر وظروفنا الراهنة .

(ب) السلطة والفرد :

فى عالم فى منتهى التعقيد والخطورة تصبح كل فضائل
السلطة من تخطيط وترو وعقلانية - من الضرورات القصوى
لتحاشى الفوضى والدمار . ومع ذلك فهذه الفضائل - من
وجهة نظر الفرد ، الذى يحتاج الى التلقائية والتمجيد - تعنى
موتاً روحياً مطرداً . وكيف يمكن التوفيق بين الاثنين ؟

ويناقش برتراند راسل أسس القوانين البشرية التى
يصبح فيها التحكم مناسباً اذا تقاسمتها الأغلبية - وتلك التى
يجب فيها ترك العنان للمبادرة الفردية ، فى سبيل تحاشى
اللامبالاة والركود . ويحتوى الكتاب على محاضرات ريث -
هيئة الاذاعة البريطانية سنة ١٩٤٨ - وكانت الأولى فى تلك
السلسلة المتميزة . وهى - مثل أغلب أعمال راسل - تتفق
مع احتياجات اليوم - كما كانت أو أكثر عندما ظهرت أولاً .

(ج) برتراند راصل

السلطة والفرد

محاضرات ريث ١٩٤٨ - ١٩٤٩

فى يوليو سنة ١٩٤٧ أعلن سير ويليام هالى - المدير العام لهيئة الاذاعة البريطانية - انشاء سلسلة سنوية لمحاضرات مذاعة تعرف باسم « محاضرات ريث » .

ففى كل سنة توجه الدعوة لاحدى السلطات المعترف بها - فى مجال معين : الاجتماع والأدب والتاريخ والشئون العامة والاقتصاد ، لاجراء دراسة أو بحث مبتكر ، عن موضوع معين ، وتقديم النتائج للمستمعين فى سلسلة اذاعية . . . وتستهدف هذه الاذاعات - ليس فقط - أن تكون قحة مجهود هيئة الاذاعة البريطانية كل سنة فى مجال سلسلة الأحاديث ، بل انها استهدفت أيضا - أن تصبح مؤسسة قومية قيمة ، تضيف الى مجمع المعرفة وتحفز على التفكير فى دائرة مطردة الاتساع .

وعندما تحدث سير ويليام عن قرار مديري هيئة الاذاعة البريطانية اطلاق اسم لورد هيث على المحاضرات المذكورة ، قال : « هناك اسم يتصدر كل ما عداه من الأسماء فى تاريخ الاذاعة البريطانية » . فمازال من الواجب تقييم ما يدين به سكان هذا البلد - تقييما سليما - لفلسفة الرجل الذى قاد الاذاعة البريطانية - ففكرته عما يجب أن تسمى اليه الاذاعة ، وعن المثل التى يجدر بها خدمتها ، والمستويات التى يجب عليها بلوغها - كانت من أعظم الأحداث الاجتماعية فى عصرنا - لهذا فليس هناك أوجب من أن نقرن اسم أكثر المجهودات الاذاعية جدية باسم مؤسسها » .

(ء) ملحوظة تقديمية :

عند اعداد هذه المحاضرات أفدت من المساعدة القيمة من زوجتي باتريشيا راصل ، ليس فقط فيما يختص بالتفاصيل بل أيضا بالنسبة للأفكار العامة وتطبيقها على ظروف وقتنا الحاضر .

برتراند راصل

التماسك الاجتماعى والطبيعة البشرية

ان المشكلة الأساسية التى اقترح بحثها فى هذه المحاضرات هى كيف يمكننا الجمع بين قدر من السبق الفردى الضرورى لكل تقدم وقدر من التماسك الاجتماعى اللازم لاجل البقاء .

وسأبدأ بالدوافع البشرية التى تجعل التعاون الاجتماعى ممكنا . وسأفحص أولا : الأشكال التى اتخذتها هذه الدوافع فى المجتمعات البدائية جدا ، ثم التعديلات التى استحدثتها المنظمات الاجتماعية فى تغيرها التدرجى فى الحضارة الزاحفة . وبعد ذلك سأبحث درجة وقوة التماسك الاجتماعى فى أزمان وأماكن مختلفة لنصل لمجتمعات العصر الحاضر - واحتمالات مزيد من التطور فى المستقبل القريب .

وبعد هذه المناقشة لقوى التماسك فى المجتمع سأتناول الجانب الآخر فى حياة الانسان فى المجتمعات ، وأعنى بالتحديد السبق الفردى - مع بيان الدور الذى لعبه فى حلقات التطور البشرى المختلفة ، والدور الذى يلعبه فى الوقت الحاضر ، والامكانات المستقبلية للكثير أو القليل جدا من السبق فى الأفراد والجماعات .

وسوف أستطرد بعد ذلك الى احدى المشكلات الجذرية فى وقتنا الحاضر - وهى بالذات الصراع الذى استحدثته النظام الحديث بين التنظيم والطبيعة البشرية ، أو - بتعبير آخر ، انفصال الدافع الاقتصادى عن حوافز الابداع والتملك . وسأبحث ما يمكن عمله نحو حل هذا المشكل ، وأخيرا سأبحث كمسألة أخلاقية كل علاقة الفكر والجهد والتصور الفردى بسلطة المجتمع .

ففى كل الأحياء الاجتماعية ، بما فيها الانسان - يوجد للتعاون والاتحاد فى المجموع ، بعض الأصل فى الفريضة - وهذا موجود بأكمل صورته فى النمل والنحل - وهى المخلوقات التى يبدو أنها لا تتعرض أبدا لأغراء الاتيان بتصرفات لا اجتماعية - ولا تنحرف أبدا عن الولاء الثابت للعش أو الخلية . ولنا أن نشعر بالاعجاب - الى حد ما - بهذا الولاء نحو الواجب العام . ولكن ، لا ريب أن لهذا سلبياته ، فالنمل والنحل مخلوقات لا تنتج أعمالا فنية عظيمة - ولا تقوم باكتشافات علمية ، ولا تؤسس ديانات تنادى بالاخوة بين كل النمل ، فحياتهم الاجتماعية فى الواقع آلية - محددة وثابتة . ونحن نرغب فى أن يكون للحياة البشرية عنصر التمرد ، اذا كان هذا يساعد على تعايش مثل هذا الركود التطورى .

كان الانسان البدائى نوعا ضعيفا ونادرا ، بحيث كان بقاءه فى البداية غير مستقر . وفى احدى الحقبات نزل آباؤه من الأشجار ، وفقدوا مزايا اصابع القدم المخلبية ، ولكنهم اكتسبوا مزايا الأذرع والأيدى . وبهذه التغيرات اكتسبوا مزايا عدم الإضطراب فيما بعد للحياة فى الغابات .

ولكن من جهة أخرى ، جعلت المساحات المترامية التى انتشروا فيها كميات الطعام أقل وفرة عما كانوا يتمتعون بها فى أدغال أفريقيا الاستوائية . ويقدر سير آرثر كيث احتياجات كل فرد بدائى واحد بميلين مربعين من الأرض لتزويده بالطعام - بينما يقدرها آخرون بأكثر من ذلك .

واذا بنينا حكما على القرود الشبيهة بالانسان وأكثر المجتمعات البدائية التى عمرت حتى العصور الحديثة ، لاستنتجنا أن الانسان الأول قد عاش فى مجموعات صغيرة ليست أكبر كثيرا من الأسر ، مجموعات يمكن تقديرها تخمينيا بين خمسين ومائة فرد .

ويبدو أنه كان هناك قدر ملموس من التعاون داخل كل مجموعة - ولكن كان هناك عداء تجاه كل المجموعات الأخرى من نفس الجنس ، كلما حدث تلاحم بينهم . وطالما بقى

الانسان نادرا كان التلاحم مع المجموعات الأخرى عرضيا -
وفي أغلب الأحيان - غير ذي أهمية • وكان لكل مجموعة
اقليمها الخاص - وكانت الصراعات تحدث فقط على الحدود •
ويبدو أن الزواج ، في هذه الآونة المبكرة ، كان مقصورا
على أفراد المجموعة الواحدة ، بحيث أصبح هناك قدر كبير
من توالد الأقارب ، ومالت التنوعات الى الاستمرار مهما كان
مصدرها •

واذا زادت مجموعة ما في العدد ، بدرجة أصبح معها
اقليمها غير كاف ، صار من المحتمل أن تدخل في صراع مع
مجموعة مجاورة • وفي صراع كهذا يمكن لأي ميزة بيولوجية
اكتسبتها إحدى المجموعات المتوالدة ، دون الأخرى، أن تحقق
لها النصر - وبناء عليه - أن تساعد على استمرار تنوعها
المفيد •

ولقد أورد هذا كله سير آرثر كيث باقناع تام • فمن
الواضح أن أجدادنا الأوائل ، الذين كانوا بشرا بالكاد ،
لا يمكن أن يكونوا قد تصرفوا بناء على سياسة مدروسة
ومقصودة ، بل لابد أنهم حفزوا بتركيب غريزي - التركيب
المزدوج للصدقة داخل القبيلة والعداء لكل الآخرين •

ولما كانت القبيلة البدائية صغيرة الى هذا الحد ، فقد
كان كل فرد كفيلا بمعرفة الأفراد الآخرين معرفة وثيقة ،
بدرجة أن يصبح شعور الصداقة ، قابلا للتوسع المتبادل ، مع
كل تعارف •

ولقد كانت الأسرة ومازالت - أكثر المجموعات
الاجتماعية تماسكا بالغريزة - فالأسرة تصبح لا غنى عنها
بحكم طول فترة الطفولة ، ولأن أم الأطفال تصادف عوائق
جمة في مهمة جمع الطعام • وكان لهذا الظرف الأثر في جعل
الأب عضوا لا غنى عنه في مجموعة الأسرة ، سواء في ذلك
بين البشر أو بين أغلب أنواع الطيور • وكانت مرحلة
الانتقال بين الأسرة والقبيلة الصغيرة - بطبيعة الحال -
مرتبطة بيولوجيا ، بحقيقة أن الصيد ، يمكن أن يصبح أكثر

كفاءة ، اذا جرى تعاونا ، ولا بد أن تماسك القبيلة ، قد تزايد وتطور منذ وقت بعيد ، نتيجة لصراعاتها مع القبائل الأخرى .

وقد أصبحت الآن - البقايا المكتشفة للإنسان الأول ونصف الإنسان ، عديدة بدرجة كافية لاعطاء صورة واضحة ، الى حد كبير ، لمراحل التطور - بدءا بأكثر القرود الشبيهة بالإنسان تقدما حتى أكثر المخلوقات البشرية بدائية .

ويقدر العلماء ان أولى البقايا البشرية المؤكدة التي تم اكتشافها حتى الآن تنتمي لفترة مضى عليها حوالى مليون سنة . ولكن يبدو أن القرود الشبيهة بالإنسان قد عاشت على الأرض ، لا على الأشجار ، قبل هذه الفترة بملايين عديدة من السنين .

وأبرز الملامح التي تحدد مدى تطور هؤلاء الأجداد الأول هو حجم المخ - ذلك الحجم الذى زاد بسرعة ملموسة الى أن وصل الى طاقته الراهنة - ولكن أصبح ثابتا منذ مئات الآلاف من السنين .

وأثناء مئات آلاف السنين هذه تحسن الإنسان من حيث المعرفة ، والمهارة المكتسبة ، والتنظيم الاجتماعى . ولكنه لم يتقدم - بقدر ما يستطيع الحكم عليه - فى القدرة الذهنية الفطرية . وكان هذا التقدم البيولوجى البحت بقدر ما يمكن تقديره من عظام - قد تم منذ عهد بعيد . وبناء عليه - يمكن افتراض أن اعدادنا الذهنى الفطرى ، كنقبض لما نكتسبه بالتعليم - ليس مختلفا كثيرا عنه فى إنسان العصر الحجري القديم .

ويبدو أنه مازالت لدينا الغرائز التي قادت أناسا - قبل أن يصبح سلوكهم اراديا - الى الحياة فى قبائل صغيرة ، مع الجمع بين النقيضين الحادين : الصداقة لمن فى الداخل ، والعداء لمن فى الخارج .

ولقد تحتم على التغييرات ، التي طرأت منذ هذه العصور

الأولى ، أن تعتمد فى دوافعها ، جزئيا ، على هذا الأساس
الغريزى ، وجزئيا على شعور واع أحيانا بصالح المجموع .

ومن أسباب نشأة الضغوط والتوتر فى حياة البشر
الاجتماعية ، احتمال محدود ، أن يصبح المرء على وعى
بالأسس العقلانية لسلوك لا تقود اليه غريزة طبيعية ، ولكن
عندما يكبت هذا السلوك ، الغريزة الطبيعية ، بقسوة
شديدة ، فان الطبيعة تتأثر لنفسها ، وذلك باحداث اما حالات
لا مبالاة واما حالات الميل للتدمير وكلاهما يمكن أن يتسبب
فى انهيار نظام أوحى به العقل .

وقد نما التماسك الاجتماعى - الذى بدأ بالولاء
للمجموعة ، الولاء المدعوم بالخوف من العدو (نما) بعمليات
بعضها تلقائى ، وبعضها مقصود ، الى أن وصل الى التجمعات
العريضة ، التى نعرفها الآن باسم الأمم .

وقد ساهمت قوى متنوعة فى هذه العمليات - ففى
مرحلة مبكرة جدا لابد أن الولاء للمجموعة كان يدعمه الولاء
للقائد ، ففى القبيلة الكبيرة يمكن أن يكون الزعيم أو الملك
معروفا لكل فرد - حتى عندما يكون الأفراد الخاصون غالبا
غرباء مع بعضهم . وبهذه الكيفية يجعل الولاء الشخصى -
كنقيض للولاء القبلى - زيادة حجم المجموعة ممكنا بدون
مجازاة للغريزة .

وفى مرحلة معينة حدث تطور أبعد من ذلك . فالحروب
التي بدأت أولا كحروب اباداة - تحولت تدريجيا - جزئيا
على الأقل - الى حروب اخضاع - فكان المغلوبون - بدل أن
يقتلوا - يتحولون الى عبيد ، ويرغمون على خدمة مخضعيهم .
وبحدوث ذلك تواجدت فئتان من الناس فى كل مجموعة :
الأعضاء الأصليون الذين كانوا وحدهم أحرارا - وكانوا
موضع الروح القبلية ، والتابعون الذين يطيعونهم بفعل
الخوف ، لا بفعل الولاء الغريزى .

ولقد سيطرت كل من نينيفه (١) وبابيلون (٢) على أقاليم

شاسعة ، لا لأن الشعوب الخاضعة لهما كانت تتمتع بأى شعور غريزى بالاندماج الاجتماعى بالمدينة المسيطرة ، بل فقط ، بسبب الخوف الذى اعتراهم بالنظر الى تفوقها فى الحرب . ومنذ تلك الأزمنة القديمة ، حتى عصورنا الحديثة - كانت الحرب هى الأداة الرئيسية فى توسع المجتمعات - وحل الخوف باطراد مستمر محل التماسك القبلى ، كمصدر للاندماج الاجتماعى . ولم يكن هذا التحول مقصورا فقط على المجتمعات الكبرى ، اذ حدث مثلا فى اسبرطه ، حيث كان المواطنون الأحرار أقلية - بينما كان الهيلوت يعانون من القمع بلا رحمة . وقد استحكمت اسبرطه المديح على طول العصور القديمة ، لما تمسكت به من تماسك اجتماعى رائع - ولكنه كان تماسكا لا يحاول أبدا أن يشمل الشعب بأجمعه ، اللهم الا بقدر ما كان الخوف يفرض الولاء الظاهرى .

وفى مرحلة تالية فى تطور الحضارة بدأ تطور نوع جديد من الولاء : ولاء مؤسس لا على الاشتراك فى الاقليم ، ولا على تشابه الجنس ، بل على وحدة العقيدة . ففىما يختص بالغرب ، يبدو أن هذا قد نشأ مع المجتمعات (الأورفية) ، التى كانت تسمح بانضمام العبيد مع المساواة . وفىما عدا هؤلاء كانت العقيدة فى العصور القديمة ، مرتبطة ارتباطا وثيقا بالحكومة لدرجة أن المجموعات المشتركة فى عقيدة واحدة كانت متطابقة تماما ، مع المجموعات التى كانت قد نشأت قبلا على الأساس البيولوجى . ولكن وحدة العقيدة أصبحت تدريجيا قوة متزايدة باطراد . وظهرت قوتها العسكرية مع الاسلام فى فتوحات القرنين السابع والثامن الميلاديين ، كما زودت الحروب الصليبية والحروب الدينية بالقوة الدافعة . وفى القرن السادس عشر رجحت فى كثير من الأحيان كفة الولاء اللاهوتى على الولاء القومى : اذ انحاز الانجليز الكاثوليك لأسبانيا والهيغونوت الفرنسيون لانجلترا .

وفى عصرنا الحاضر(*) تستحوذ عقيدتان منتشرتان على

(*) يلاحظ أن هذه المحاضرة أُلقيت فى سنة ١٩٤٨ .

نطاق واسع على ولاء جانب كبير جدا من البشرية • واحد
هاتين العقيدتين وهى الشيوعية يؤازرها تعصب شديد
ويحتويها كتاب مقدس ، والعقيدة الأخرى - أقل منها
تحديدا ولكنها مع ذلك فعالة ويمكن تسميتها طريقة الحياة
الأمريكية • فأمريكا التى تكونت بالهجرة من بلاد مختلفة -
ليست لها وحدة بيولوجية ، ولكن لها وحدة لا تقل قوة عن
وحدة الأمم الأوروبية • فكما قال ابراهام لنكولان « انها
مكرسة لقضية » • فكثيرا ما يعانى المهاجرون الى أمريكا
من الحنين لأوروبا ، ولكن غالبية أبنائهم يعتبرون نمط الحياة
فى أمريكا أفضل منه فى « العالم القديم » ، ويؤمنون بقوة
بأنه من صالح الانسانية أن يصبح هذا النمط عالميا • وفى
كل من أمريكا وروسيا تضافرت وحدتا العقيدة والقومية ،
وبذلك اكتسبت قوة جديدة - ولكن لهاتين العقيدتين جاذبية
تتعدى حدودهما القومية •

ومازال الولاء الحديث للمجموعات العريضة فى عصرنا
الحاضر ، بقدر ما هو قوى ومكتف ذاتيا ، يستفيد من
التركيب السيكولوجى القديم ، الذى نشأ فى أيام القبائل
الصغيرة • والطبيعة البشرية الفطرية - كنقيض لما تتطور
اليه هذه الطبيعة بفعل المدارس والأديان والدعاية والمنظمات
الاقتصادية ، لم تتغير كثيرا منذ بدأ الانسان أولا يتمتع بمخ
فى حجم المخ الذى تعودنا عليه •

ونميل غريزيا الى تصنيف البشر الى أصدقاء وأعداء :
أصدقاء نشعر نحوهم بخلق التعاون - وأعداء نشعر نحوهم
بالتنافس • ولكن هذا التصنيف يتغير باستمرار - وفى لحظة
يكره المرء منافسه المهنى - وفى لحظة أخرى يبدأ فجأة
يعده أخا ، عندما يهدد الاثنين خطر الاشتراكية ، أو أى
عدو خارجى • وفى جميع الأحيان عندما نجتاز حدود العائلة ،
يكون العدو الخارجى مصدرا لقوة التماسك • وفى أوقات
السلامة ، نملك أن نكره عدونا • ولكن فى ظروف الخطر
يتحتم علينا أن نعبه • وفى أغلب الأحيان لا يفرم الناس

بأولئك الذين يجدونهم بجوارهم في (الأوتوبيس) -
ولكنهم يفعلون ذلك أثناء العاصفة (الصاعقة) .

وهذا هو مصدر الصعوبة في تصميم وسيلة للوحدة على
مستوى العالم : فإذا تم تأسيس دولة عالمية باحكام ، فلن يكون
لها أعداء تخشاهم وتكون بناء على ذلك معرضة للانهيأر ،
لافتقارها للقوة الدامجة .

ولقد سعت ديانتان عظيمتان - هما البوذية والمسيحية -
أن تقدما للجنس البشرى بأسره الشعور التعاونى ، الذى ينشأ
غريزيا نحو الزملاء فى القبيلة . وقد بشروا بأخوة البشر
فى وعظهم ، وأوضحوا باستعمالهم كلمة « أخوه » أنهم
يحاولون جعل موقف وجدانى - كان فى الأصل بيولوجيا -
يتجاوز حدوده الطبيعية . فإذا كنا جميعا أبناء الله فلا بد أن
نكون جميعا أسرة واحدة . ولكن عند وضع الأمر موضع
التنفيذ شعر أولئك الذين اعتنقوا هذه العقيدة ، أن الذين
لم يعتنقوها ليسوا أبناء الله بل أبناء ابليس . وعاد
التركيب القديم - نظام الكراهية لمن هم خارج القبيلة ،
ليضيف قوة جديدة للعقيدة ، ولكن فى اتجاه ينحى جانبا
عن هدفها الأصلى . ذلك أن الدين والأخلاقيات والمصلحة
الاقتصادية الذاتية - بل مجرد السعى للبقاء بيولوجيا - كلها
تزود أذهاننا بمناقشات لا يمكن الرد عليها - لصالح
التعاون العالمى . ولكن الفرائز القديمة التى ورثناها من
أجدادنا فى القبيلة تهب غاضبة لتشعرنا بأن الحياة سوف
تفقد نكهتها ان لم يكن فيها من نكرهه ، وأن أى شخص
استطاع أن يحب وغدا مثل فلان الفلانى لابد وأن يكون
دودة ، وأن الصراع هو قانون الحياة وأنه لن يكون
هناك ما نعيش من أجله فى عالم يحب فيه الكل بعضهم بعضا
وإذا قدر لعملية توحيد البشرية أن تتحقق ، فسيصبح من
الضرورى أن نوجد طرقا للتغلب على وحشيتنا البدائية ،
ومعظمها لا واعية - وذلك بتأسيس سيادة القانون من
ناحية ، وإيجاد منافذ بريئة - لفرائز التنافس ، لدينا ، من
ناحية أخرى .

وليس هذا مشكلا يسيرا ، ولا هو مشكل سهل حله ،
بالأخلاقيات وحدها . فالتحليل النفساني - بالرغم من أن له
بلا شك مبالغاته ، وحتى أحيانا سخافات ، قد علمنا الكثير
مما هو صادق وقيم . ومن الأقوال المأثورة « انك حتى ان
طردت الطبيعة بمدراة فانها ستعود حتما » . ولكن التحليل
النفساني زودنا بالتعليق على هذا النص . ونحن نعلم أن أى
حياة تحيد أكثر من اللازم ، عن الدافع الطبيعي لابد وأن
تؤدى الى حالات توتر ، يمكن أن تتساوى فى مساوئها مع
ما كان يحتمل أن ينشأ من مساوىء - نتيجة لاشباع الرغبات
المحرمة .

والناس الذين يعيشون حياة غير طبيعية بدرجة غير
عادية ، يمكن أن يضمروا الحسد والحقد وسوء النية ، ودل
ما يتعارض مع الخير . ويمكن أن تتطور فيهم ضغوط
القسوة - ومن جهة أخرى قد يفقدون تماما كل استمتاع
بالحياة ، بدرجة لا يقوون معها على بذل أى مجهود . وقد
لوحظت هذه النتيجة الأخيرة بين الهمجيين الذين واجهوا
المدنية الحديثة فجأة . وقد وصف علماء الانسان كيف ان
صيادى الرؤوس البابيين (٣) - عندما حرمتهم السلطان البيضاء
من رياضتهم المعتادة (صيد الرءوس) - فقدوا كل الحماس ،
ولم تعد لديهم أية قدرة على الاهتمام بشيء . ولا أرغب أن
أوحى بأنه كان يجب تركهم يذهبون لصيد الرءوس ، ولكنى
أقصد ، أنه كان يمكن أن يكون مجديا ، أن يحاول علماء
النفس أن يوجدوا لهم نشاطا بريئا كبديل . و « الانسان
المتمدن » فى كل مكان ، يقف الى درجة معينة ، نفس موقف
ضحايا الفضيلة البابيين ، فلدينا كل أنواع غرائز العدوان ،
كما أن لدينا الدوافع الخلاقة التى يمنعنا المجتمع من تحقيقها
واشباعها . والفرص البديلة التى يزودنا بها على هيئة
مسابقات كرة قدم ، وكل المصارعات المحلية - لا تكاد تفى
بالغرض .

ويجب على كل من يؤمل فى امكانية الفاء الحرب فى
وقت ما ، أن يفكر جديا فى مشكلة اشباع الغرائز ، التى

نرثها من أجيال بعيدة من الهمج . وبالنسبة لى شخصيا ، فانى أجد فى القصص البوليسية تنفيسا كافيا - ففيها أرى نفسى تارة فى شخص القاتل ، وتارة فى شخص الشرطى الصائد ، الذى يسعى للقبض عليه - ولكنى أعلم أن هناك أولئك الذين يجدون هذا التنفيس البديلى أبسط من اللازم ، ويحتاجون لتزويدهم بما هو أقوى منه .

ولا أظن أن البشر العاديين يمكن أن يكونوا سعداء بدون منافسة - لأن المنافسة كانت ومازالت - منذ نشأة الانسان - الحافز لأغلب الأنشطة الجادة . ولهذا لا يجوز لنا أن نحاول الغاء التنافس - ولكن علينا فقط أن نعمل على ألا يتخذ أشكالا تؤدي الى اصابات بالغة .

وكان التنافس البدائى صراعا على من الذى يستطيع اغتيال الرجل الآخر وزوجته وأطفاله - والتنافس الحديث فى هيئة الحرب يتخذ نفس هذا الشكل . ولكن فى الرياضة ، وفى التنافس الأدبى والفنى ، وفى السياسة الدستورية ، يتخذ التنافس أشكالا أقل ضررا ، ولكنها مع ذلك تقدم تنفيسا مناسبيا الى حد ما ، لغرائزنا العدوانية . وليس الخطأ هنا فى أن هذه الأشكال للمنافسة أشكال سيئة ، ولكن أنها تكون جزءا ضئيلا جدا من حياة الرجال والنساء العاديين .

وباستثناء الحرب - فقد هدفت الحضارة الحديثة بدرجة مطردة نحو الأمان - ولكنى لست متأكدا بالمرّة من أن تحديد كل ضروب الخطر يؤدي الى السعادة .

وأود فى هذه المرحلة أن أقتبس فقرة من محاضرة سير آرثر كيث (النظرية الحديثة للتطور البشرى) :

« ان أولئك الذين زاروا أقواما يعيشون تحت (حكم « العدالة الوحشية » Wild Justice يعودون بتقارير عن سعادة أغلب من يعيشون فى تلك الظروف . فقد كتبت فرياستارك مثلا تقريرها هذا عن جنوب الجزيرة العربية :

« عندما وصلت (★) في رحلتى الى ذلك الجزء من البلاد حيث لا يوجد أمان ، وجدت شعبا - بالرغم من دأبه على الشكوى من تعرضه للتشهير وللسرقة دائما - ممتلئا مع ذلك بالبهجة ، ومستمتعا بسعادة الحياة العادية ، بنفس القدر الذى نجده فى أى مكان آخر فى العالم » .

وكانت للدكتور هـ . ك . فرأى تجربة مماثلة بين أبناء استراليا الأصليين - اذ قرر أن « المواطن فى حالته الوحشية wild يستشعر فى حياته خطرا دائما ، والأرواح العدائية حوله باستمرار - ومع ذلك فهو غير مهموم - بل مبتهج يدال أطفاله يكوم أبويه المسنين . والمثل الثالث الذى أورده هنا مستمد من الهنود الكراو فى أمريكا ، الذين عاشوا تحت ملاحظة د . لاورى سنوات عديدة - ويعيشون الآن فى أمان الحجز . وقد قرر د . لاورى ما يلى : « اسأل أحد الكراو ان كان يفضل الأمان الحالى أو خطر الماضى . وسيكون رده « خطر الماضى . . كان فيه زهو ومجد » .

وأنا أفترض أن ظروف الحياة البدائية التى وصفتها كانت تلك التى عاش فيها البشر طيلة حقبة تطوره البدائية - وكانت طبيعة الانسان وشخصيته قد تكونت فى تلك الحقبة التى كانت عملية القتل للنثار أحد ظروفها » .

وتلك النتائج لسيكولوجية البشر - تبرر بعض الأمور التى كانت ، بالنسبة لى على الأقل ، مدهشة عندما علمت بها لأول مرة سنة ١٩١٤ . فكثير من الناس ، يكونون أسعد حالا ، أثناء الحرب منهم أثناء السلم - اذا كانت المعاناة المباشرة الناتجة عن القتال ، لا تؤثر كثيرا عليهم شخصيا . فالحياة الهادئة ، يمكن أن تكون مملة . والوجود الخالى من المفامرة ، لمواطن حسن السلوك ، منشغل فى كسب دخل لحياة متوسطة ، بطاقة متواضعة ، يترك ، بدون اشباع ، ذلك الجزء من طبيعته ، الذى كان يمكن أن يجد مجالا واسعا ، ان هو عاش منذ أربعة آلاف قرن - فى البحث عن قطع رقاب

(★) ملحوظة : يلاحظ أن المحاضرة أذيعت فى سنة ١٩٤٨ - ولابد وأن هذا التقرير

سابق لها فى التاريخ (المترجمة) .

أعدائه ، ومحاولة الهرب من عيون النمر . وعندما تقوم الحرب ، قد يهرب كاتب البنك ليصبح فدائيا - وحينئذ سيشعر على الأقل بأنه يعيش ، كما أرادت له الطبيعة أن يعيش .

ولكن - لسوء الحظ - لقد أدخل العلم ، فى رءوسنا ، سيلا ضخمة لاشباع غرائزنا الهدامة ، بحيث اذا تركنا لها العنان ، لا تخدم أى غرض من أغراض التطور - كما فعلت عندما كان الناس منقسمين الى قبائل صغيرة .

ومشكلة التصالح مع دوافعنا الفوضوية ، هى واحدة من المشكلات التى لم تدرس بعد بدرجة كافية - ولكنها تزداد أهمية كلما زاد التقدم التكنولوجى . ومن وجهة النظر البيولوجية البحتة ، كان من سوء الطالع أن تقدم الجانب الهدام للتكنولوجيا بسرعة أكثر من الجانب البناء . إذ يمكن للمرء أن يقتل فى لحظة واحدة خمسمائة ألف شخص ، ولكنه لا يستطيع انجاب أطفال بأسرع مما كان أباؤنا البدائيون ينجبون . ولو كان فى وسع رجل أن ينجب خمسمائة ألف طفل بنفس السرعة التى يمكن للمقبلة النووية أن تهلك خمسمائة ألف عدو - لأمكننا - مع الفظيع من المعاناة - ترك المشكلة للصراع على البقاء والبقاء للأصلح . ولكن لم يعد فى الامكان - فى العالم الحديث - الاعتماد على ميكانيكية التطور .

ومشكلة المصلح الاجتماعى - اذن - ليست مجرد البحث عن وسيلة للأمان - لأنه ان كانت هذه الوسائل ، فى حالة وجودها لا تهيب رضا عميقا - فسوف نلقى بها بعيدا ، فى سبيل ما تحققه المغامرة من مجد . والمشكلة الأخرى ، هى الجمع بين تلك الدرجة من الأمان ، الضرورية لبقاء الجنس ، وبين أشكال المغامرات والخطر والصراع ، التى تتمشى مع نمط الحياة المتمدينة .

وأثناء محاولة ايجاد حل لهذه المشكلة ، علينا أن نتذكر دائما ، أنه بالرغم من أن طريقة حياتنا ، وقوانيننا ،

ومعرفتنا ، قد تعرضت جميعها لتغيرات جذرية ، فان غرائزنا للخير والشر تبقى (الى حد كبير) كما كانت عندما وصلت أمخاخ أجدادنا الى حجمها الحالى فى الوقت الحاضر .

وأنا لا أظن أن التوفيق بين الحوافز البدائية وطريقة الحياة المتحضرة مستحيل . وقد أوضحت الدراسات الانسانية ، استعداد الطبيعة البشرية ، الواسع جدا ، للتكيف مع نماذج ثقافية مختلفة . ولكنى لا أظن ، أنه يمكن تحقيق هذا التوفيق باستبعاد الحوافز الأصلية تماما . فحياة بدون مغامرة لا بد وأن تصبح غير مرضية - ولكن حياة يترك فيها العنان للمغامرة فى أى شكل ، لا بد وأن تكون قصيرة .

وأظن أن جوهر الموضوع قد حدده الهندي الأحمر ، الذى اقتبست حديثه منذ لحظة ، عندما أعرب عن أسفه على الحياة القديمة ، لما فيها من « مجد » . وكل شخص ذى طاقة يود أن يحقق شيئا يعد « مجدا » . وهناك أولئك الذين يحققونه : نجوم السينما ، والرياضيون المشهورون ، والقادة العسكريون - وحتى قليل من السياسيين ، ولكنهم أقلية ضئيلة .

أما الباقون ، فيتركون لأحلام اليقظة : فى السينما ، وفى قصص مغامرات الغرب الوحشية wild وأحلام يقظة شخصية بحتة ، ذات قوة تصويرية - ولست واحدا من أولئك الذين يعدون أحلام اليقظة كلها شرا ، بل هى جزء أساسى من حياة التصور . ولكن عندما تتقدم - خلال حياة طويلة - السبل لايجاد صلة بينها وبين الحقيقة ، فانها تصبح بسهولة ، غير صالحة ، ومصدر خطر على العقل : وربما مازال فى الامكان ، حتى فى عالمنا الآلى ، أن نجد منفذا لحوافزنا ، المحصورة حاليا فى عالم الخيال . ونأمل - من أجل الاستقرار أن يصبح هذا ممكنا - لأنه ان تعذر تحقيقه - فستكتسح النظريات والفلسفات الهدامة انجازات البشر ، من حين لآخر . واذا تعين علينا أن نمنع هذا ، فلا بد أن يجد العنصر الهمجى فى كل منا منفذا متوافقا مع الحياة الحضرية ، ومع سعادة جاره الهمجى بنفس القدر .

(التماسك الاجتماعى والحكومة)

ان التركيب الأصيل للتماسك الاجتماعى - كما يوجد حتى الآن بين أكثر الأجناس بدائية - كان تركيبا يعمل خلال علم النفس الفردى ، دون الحاجة لأى نظام يمكن تسميته حكومة • وكانت هناك - بلا شك - عادات محلية ، كان على الجميع اتباعها - ولكن على المرء أن يفترض ان لم يكن هناك دافع لعصيان هذه العادات ، ولا حاجة الى قضاة ، ورجال أمن ، لفرضها بالقوة •

وفى أيام العصر الحجري القديم - يبدو - فيما يختص بالسلطة أن القبيلة عاشت ، فى حالة ، يمكن وصفها الآن بالفوضى - ولكنها كانت مختلفة تماما عما يطلق عليه هذا الاسم فى مجتمع حديث ، بسبب حقيقة أن الحوافز الاجتماعية ، كانت تتحكم - بدرجة كافية - فى تصرفات الأفراد •

وكان رجال العصر الحجري الجديد مختلفين تماما • اذ كانت لهم حكومة وسلطات قادرة على فرض الطاعة والتعاون على نطاق واسع • وهذا واضح فى أعمالهم • فلم يكن فى مقدور النوع البدائى لتماسك القبيلة الصغيرة أن ينتج معبد ستونهنج (٤) ولا الاهرامات ، ولا بد أن تكبير حجم الوحدة الاجتماعية قد نتج عن الحرب - فاذا قامت حرب إبادة بين قبيلتين فان القبيلة المنتصرة تصبح قادرة - باكتسابها أقاليم جديدة ، على زيادة عدد أفرادها •

كذلك تنتج عن الحرب ميزة اتحاد قبيلتين أو أكثر ، واذا استمر الخطر الذى أدى الى التحالف ، يتحول التحالف بمرور الوقت الى تجمع • وعندما تصير الوحدة كبيرة بدرجة

يتعذر معها على أفرادها أن يعرفوا بعضهم بعضاً ، تنشأ الحاجة الى نظام للوصول الى قرارات جماعية . ويتطور هذا النظام بدوره تدريجياً الى ما يسميه الانسان الحديث (حكومة) . وبمجرد أن توجد حكومة يتمتع بعض الرجال بالسلطات أكثر من غيرهم . وتعتمد سلطاتهم ، بصفة عامة ، على حجم الوحدة التي يحكمونها . وهكذا يقود حب السلطة لدى الحكام الى الرغبة فى الاخضاع . ويقوى هذا الدافع كثيراً عندما يتحول المهزومون الى عبيد بدلاً من ابادتهم .

وبهذه الطريقة ، نشأت منذ وقت مبكر جداً ، مجتمعات اعتمدت بدرجة بالغة على سطوة الحكومة لعقاب من كانوا يعصونها ، رغم أن حوافزها البدائية نحو التعاون الاجتماعى استمرت قائمة .

وفى أقدم المجتمعات تاريخياً - مجتمع مصر القديمة - نجد ملكاً بسلطات مطلقة على اقليم شاسع ، باستثناء بعض التحديد من قبل الكهنة ، كما نجد شعباً كبيراً خاضعاً ، استطاع الملك عندما شاء ، أن يستخدمه فى انشاءات الدولة كالأهرام مثلاً . وفى مجتمع كهذا ، كانت الأقلية فقط - كالمالك والطبقة العليا والكهنة ، على قمة السلم الاجتماعى - تحتاج الى تنظيم نفسانى ، لتحقيق التماسك الاجتماعى - وكان على الباقين مجرد الطاعة .

ولا شك أن قطاعات كبيرة من الشعب كانت غير سعيدة . ويمكن تصور حالتهم من الفصول الأولى من سفر (الخروج) ولكن كانت القاعدة انه طالما لا يوجد خوف من العدو الخارجى ، فان حالة المعاناة المنتشرة على نطاق واسع ، لا تمنع رخاء الدولة ، ولا تمس استمتاع حائزى السلطة بالحياة .

ولا بد أن هذه الحال قد سادت على مدى أزمنة طويلة ، فيما نسميه الآن (الشرق الأوسط) . وكانت تعتمد فى استقرارها على الدين و قدسية الملك . وكان العصيان يعد كفراً ، والتمرد مدعاة لغضب الآلهة . وطالما كانت الطبقات

الاجتماعية العليا حق مؤمنة بذلك - كان من السهل تطويع
الباقين كما نطوع الحيوانات الأليفة الآن .

ومن الحقائق العجيبة أن الانتصار العسكرى ، كان فى
كثير من الأحيان يولد عند المغلوبين ولاء حقيقيا نحو رؤسائهم
- وقد حدث هذا فى الوقت المناسب مع أغلب الانتصارات
الرومانية .

وفى القرن الخامس - لما لم يعد فى وسع روما فرض
الطاعة - بقيت بلاد الغال (5) Gaul على ولائها الكامل
للامبراطورية .

وقد اعتمدت كل الدول القديمة فى وجودها على القوة
العسكرية ، ولكن أغلبها كان يستطيع - اذا بقى وقتا كافيا -
أن يولد شعورا بالتماسك فى المجموع ، بالرغم من المقاومة
العنيفة لأجزاء كبيرة فى وقت استياعهم .

وقد حدث نفس الشئ ثانيا ، مع نمو الدولة الحديثة ،
أثناء العصور الوسطى . فانجلترا وفرنسا واسبانيا ، حصلت
على الوحدة نتيجة للنصر العسكرى على يد حاكم لقسم مما
أصبح أمة واحدة .

وفى الأزمنة القديمة ، عانت كل الدول الكبرى
- الا مصر - من الحاجة للاستقرار - وكانت الأسباب تقنية
فى الغالب . فحينما لم يكن هناك ما يمكن أن يتحرك أسرع
من الحصان ، كان من الصعب على الحكومة المركزية ، أن
تحتفظ بقبضة حازمة ، على حكام الأقاليم النائية ، الذين
كان يحتمل أن يتمردوا ، وأن ينجحوا أحيانا فى اخضاع كل
الامبراطورية . وفى أحيان أخرى أن ينصبوا أنفسهم حكاما
مستقلين لقطاع منها . ولقد قامت لاسكندرا الأكبر ، وأتيلا (٦)
وجنجز خان (٧) امبراطوريات شاسعة ، تفتتت بعد وفاتهم ،
وكانت الوحدة فيها قد اعتمدت كلياً على منزلة منتصر عظيم .
ولم تكن لهذه الامبراطورية وحدة سيكولوجية - ولكن فقط
وحدة السطوة .

وقد فعلت روما أفضل من ذلك • لأن الحضارة الاغريقية الرومانية كانت حضارة يقدرها الأفراد المثقفون ، وكانت مضادة بشدة لبربرية القبائل عبر الحدود • والى أن تم اكتشاف التقنيات الحديثة ، لم يكن ممكنا الاحتفاظ بامبراطورية عظمى موحدة ، الا اذا كان للقطاعات العليا من المجتمع - طولا وعرضا - عاطفة ما مشتركة، يمكن توحيدهم بواسطتها - وكانت الوسائل التي يمكن بها توليد مثل هذه العاطفة المشتركة - غير مفهومة بالدرجة التي نفهمها بها الآن • ولهذا كان الأساس السيكولوجي للتماسك الاجتماعي، مازال مهما ، بالرغم من أن الحاجة اليه كانت محصورة في الأقلية الحاكمة •

وفي المجتمعات القديمة ، كانت الميزة الأساسية للحجم الكبير ، وبالذات ، في امكانيات جيوش كبيرة ، متوازنة مع عائق الحاجة لوقت طويل لتحريك الجيش من أحد أجزاء الامبراطورية الى جزء آخر ، وأيضا أن الحكومة المدنية ، لم تكن قد اكتشفت بعد - وسائل منع التمرد العسكري • وقد استمرت هذه الأحوال بدرجة ما حتى الأزمنة الحديثة •

فالى حد كبير ، كان عائق التحرك هو الذي سبب فقدان انجلترا واسبانيا والبرتغال ممتلكاتهم في نصف الكرة الغربي • ولكن منذ ظهور البخار والتلغراف ، أصبح الاحتفاظ باقليم شاسع أسهل كثيرا من ذي قبل • ومنذ ظهور التعليم الشامل ، أصبح غرس ولاء صناعي في شعب كبير أكثر سهولة •

وقد سهلت التقنية الحديثة تحقيق سيكولوجية التماسك في المجموعات الكبيرة - وليس هذا فقط ، بل انها جعلت تلك المجموعات حتمية من وجهتي نظر اقتصادية وعسكرية معا • فمزايا الانتاج على نطاق واسع موضوع مكرر ، ولا أنوى أن أتوسع فيه • وكما يعلم الكل ، فقد كانت (هذه المزايا) موضع الحاح كسبب لوحدة أوثق بين أمم غرب أوروبا • ولقد عزز نهر النيل ، منذ أقدم الأزمنة -

تماسك مصر كلها ، لأن حكومة تسيطر فقط على أعالي النيل
يمكنها القضاء على خصوبة مصر الدنيا • ولم تتدخل أى
تقنية متقدمة فى هذا المجال - ولكن هيئة وادى نهر التينيسى
والممر المائى المقترح لنهر سانت لورانس ، هى امتدادات
علمية لنفس فاعلية الأنهار فى التماسك • ومحطات القوى
المركزية ، التى توزع الطاقة الكهربائية على مساحات واسعة ،
أصبحت مهمة بدرجة مطردة ، وتدر ربحا أكثر عندما
تكون المساحة كبيرة عنها عندما تكون صغيرة • وإذا أصبح
عمليا (وهو أمر غير محتمل) استعمال الطاقة الذرية على
نطاق واسع ، فان من شأن هذا أن يضيف بقدر هائل مساحة
التوزيع المربحة •

وكل هذه التطورات الحديثة ، تزيد السيطرة على حياة
الأفراد التى يملكها من يحكمون منظمات ضخمة ، وتجعل فى
نفس الوقت ، القليل من المنظمات الضخمة ، أكثر تفوفا فى
الانتاج عن القليل من المنظمات الأصغر •

وعلى مستوى كوكب الأرض كلها ، لا يوجد حد مرئى
لما يراى الحجم ، سواء فى المنظمات الاقتصادية أو السياسية •

وأصل الآن الى عرض آخر لنفس التطورات الحكومية
المتشابهة تقريبا من وجهة نظر مختلفة • فقد اختلفت
أشكال سيطرة الحكومات على حياة أعضاء المجتمع خلال
العقبات التاريخية - ليس فقط من حيث حجم المنطقة
الحكومية ، بل من حيث عمق تدخلها فى الحياة الفردية •
ويبدأ ما يمكن تسميته حضارة بامبراطوريات من نوع محدد
جيذا ، وأكثرها وضوحا هى مصر وبابيلون ونييقا ، وكانت
امبراطوريتا أزتكا (٨) وانكا (٩) أساسا من نفس النوع •

وفى مثل هذه الامبراطوريات ، كان للطبقة العليا فى
البداية قدر مرموق من السبق الشخصى ، ولكن شعب العبيد
الكبير ، المكتسب من الانتصار الأجنبى ، لم يكن له منه
شئ • وكان فى استطاعة الكهنة التدخل فى الحياة اليومية

بدرجة كبيرة جدا • وباستثناء المجالات المتعلقة بالعقيدة ، كانت للملك سلطة مطلقة - وكان يمكنه ارغام تابعيه على الاشتراك فى حروبه • ونتج عن قدسية الملك ، والتبجيل للكهنة مجتمع مستقر ، فى حالة مصر ، وهى أكثر المجتمعات ، التى لنا علم بها ، استقرارا • وقد تهيأ هذا الاستقرار على حساب التشدد •

وقد أصبحت هذه الامبراطوريات القديمة ، ثابتة النمط (مقولبة) لدرجة لم تعد قادرة معها على صد الاعتداء الخارجى - فاستوعبتها فارس ، وفارس فى النهاية هزمها الاغريق •

واستكمل الاغريق نوعا جديدا من الحضارة كان قد بدعه الفينيقيون ، وهو نظام دولة المدينة Citytate المؤسسة على التجارة والسيطرة البحرية • وقد تباينت المدن الاغريقية وكان فى كثير منها قدر كبير من الحرية ، ولكن كان فى اسبرطة أقل قدر ممكن منها • واتجهت أغلبها مع ذلك ، للوقوع تحت نير الطغاة • وخلال فترات طويلة ، كان لهم نظام استبدادى تخففه الثورة •

وكانت الثورة سهلة فى دولة المدينة - اذ كان على الغاضبين أن يجتازوا عدة أميال ليبتعدوا عن حدود اقليم الحكومة التى يريدون التمرد عليها ، وكانت هناك دائما دويلات مستعدة لمساعدتهم • وطوال عصر الاغريق العظيم كان هناك قدر من الفوضى من شأنه أن يبدو، للعقل الحديث، غير محتمل • ولكن سكان المدينة اليونانية ، حتى أولئك الذين كانوا فى تمرد ضد الحكومة الفعلية ، احتفظوا بسيكولوجية ولاء بدائى ، اذ أحبوا مدينتهم بتفان كان فى أغلب الأحيان غير رزين - ولكنه كان عاطفيا على الدوام تقريبا • وكانت عظمة الاغريق فى الانجاز الفردى ، على ما أعتقد مرتبطة ارتباطا وثيقا بعدم صلاحيتهم كسياسيين ، لأن قوة الوجدان الفردى كانت مصدرا لكل من الانجاز الفردى ، والفشل فى الحفاظ على وحدة اغريقية • وهكذا

وقعت بلاد اليونان تحت هيمنة مقدونيا أولا ثم روما فيما بعد .

وقد تركت الامبراطورية الرومانية - أثناء توسعها ، قدرا كبيرا جدا من الحكم الذاتى الفردى والمحلى فى الأقاليم ، ولكن ، بعد حكومة أوغسطس اكتسبت ، تدريجيا ، قدرا أعظم فأعظم من السيطرة ، وفى النهاية ، وبالأخص عن طريق المغالاة فى فرض الضرائب ، تسببت فى انهيار النظام الكلى ، فى الجزء الأكبر مما كان يعرف بالامبراطورية الرومانية . ومع ذلك لم يكن هناك فيما تبقى ، أى تراخ فى الحكم .

وكانت المعارضة لهذا الحكم الدقيق - أكثر من أى سبب آخر - هى التى جعلت إعادة غزو جاستينيان لىطاليا وأفريقيا سريع الزوال بهذه الصورة . ذلك لأن أولئك الذين كانوا قد رحبوا فى البداية بقواته كمخلصين من القوطيين والفانداليين غيروا رأيهم عندما أعقب قواته جيش من جياة الضرائب .

وكانت محاولة روما توحيد العالم المتمدين قد وصلت الى حالة مأساوية ، ربما لأنها كانت الى حد كبير بعيدة واجنبية ، فشلت فى جلب أى درجة من السعادة الغريزية ، حتى لدى المواطنين الموسرين .

وفى قرونها الأخيرة تفشى التشاؤم وفقدان الحماس والحيوية حتى أصبحت مظاهر عامة . وشعر الناس أن الحياة هنا على الأرض لا تقدم الكثير - وساعد هذا الشعور المسيحية على التسلط على أفكار الناس عن العالم القديم .

وبخسوف شمس روما اعتري الغرب تحول كامل للغاية . اذ توقفت التجارة تقريبا ، وتعرضت الطرق العظمى لحالة اهمال وعدم صيانة - وكثيرا ما دخل الملوك اتافهون فى حروب فيما بينهم ، بينما كان عليهم أن يواجهوا فوضى الأرستقراطية التيوتونية المشاغبة ، والكره والامتعاض من الشعب الذى كان قد أصبح رومانيا .

ولقد اختلفت تقريبا العبودية على نطاق واسع في كل الغرب المسيحي ، ولكن حلت محلها عبودية الأرض • وبدلاً من اعتمادها على الأساطيل الضخمة ، التي كانت تنقل الحبوب من أفريقيا إلى روما ، عاشت مجتمعات صغيرة ، لها اتصالات خارجية قليلة ونادرة ، بقدر الامكان ، على محاصيل أراضيها ذاتها • وغدت الحياة صعبة وقاسية : ولكن لم تعد لها صفات التواكل واليأس التي كانت لها في أيام روما الأخيرة •

وخلال العصور المظلمة والمتوسطة انتشر التمرد على القانون - ونتيجة لذلك أله أهل الفكر والحكماء القانون • وبالتدريج أعاد النشاط الذي كان قد أتاحه التمرد على القانون ، قدرا من النظام ، ومكن عددا من الرجال العظام من بناء حضارة جديدة :

وبدءا بالقرن الخامس عشر إلى وقتنا الحاضر ، تزايدت باطراد سطوة الدولة كمناهضة للفرد ، أولا ، وبدرجة رئيسية نتيجة لاختراع البارود • وتبما كما كان الحال في الأيام الأولى للفوضى : وتبما كما قدس القانون أعظم الرجال تفكيراً - فقد كان هناك اتجاه متزايد ، أثناء فترة ازدياد سطوة الدولة - لتقديس الحرية •

وكان للقرنين الثامن عشر والتاسع عشر قدر ملحوظ من النجاح في زيادة سطوة الدولة ، بالقدر الذي كان ضروريا للحفاظ على النظام ، وفي ترك قدر كبير من الحرية - رغما عنها - لأولئك المواطنين الذين لا ينتمون لأدنى الطبقات الاجتماعية •

ومع ذلك - يبدو أن الدافع نحو الحرية ، قد فقد كثيرا من قوته بين المصلحين ، وقد حل محله حب المساواة ، الذي حفزه كثيرا ظهور سطوة أقطاب صناعيين جدد ، بدون أي حق تقليدي في الرئاسة • وقد أقنعت ضرورات الحرب الشاملة الجميع تقريبا بضرورة وجود نظام اجتماعي أكثر احكاما مما ارتضاه أجدادنا •

ويوجد على جزء كبير من سطح الأرض نظام لا يختلف

عن الارتداد للنظام المصرى القديم للملكية المقدسة ، التى تتحكم فيها طبقة من الكهنة . وبالرغم من أن هذا الاتجاه لم يتدعم بعد كثيرا فى الغرب كما فعل فى الشرق ، فإنه مع ذلك وصل الى مدى ، كان من شأنه أن يدهش القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، فى كل من انجلترا وأمريكا ، فالسبق الفردى تطوَّقه فى الحالتين ، الدولة أو المؤسسات القوية ، وهناك خطر كبير مما قد يترتب على هذا ، كما حدث فى روما القديمة ، من ضروب من الكسل واللامبالاة ، والقدرة (الايمان بالقضاء والقدر) التى تهدد الحياة النشيطة بالفناء .

وأنا أتلقى باستمرار خطابات تقول : « أنا أرى أن العالم فى حالة سيئة . ولكن ماذا يمكن ، لشخص واحد متواضع ، أن يفعله ؟ ان الحياة والملكية أصبحتا تحت تصرف أفراد معدودين ، يملكون تقرير السلم أو الحرب . وتتقرر الأنشطة الاقتصادية على أى مستوى عريض بواسطة أولئك الذين يحكمون الدولة ، أو المؤسسات الكبرى . وحتى حيثما توجد ديمقراطية اسمية ، فإن الدور الذى يمكن لأحد المواطنين القيام به فى التحكم فى السياسة ، يكون عادة ضئيلا جدا . أليس من الأفضل - ربما - فى مثل هذه الظروف - أن ننسى الشؤون العامة وأن نحصل على أكبر كم من المتعة المناسبة ، بقدر ما يسمح الوقت ؟ » .

وأنا أجد فى الرد على مثل هذه الخطابات صعوبة جمة . وأنا متأكد أن الحالة الذهنية التى تؤدى الى كتابتها متعارضة جدا مع أى حياة اجتماعية سوية . فنتيجة لمجرد حجمها ، تصبح الحكومة باطراد ، بعيدة عن المحكومين ، وتتجه ، حتى فى دولة ديمقراطية ، لأن تصبح لها حياة مستقلة ذاتيا . وأنا لا أدعى القدرة على علاج هذا الشر بالكامل ، ولكنى أرى أن من المهم أن نعترف بوجوده ، وأن نبحث عن وسائل تقليص ضخامته .

ان التركيب الفريزى للتماسك الاجتماعى ، وهو الولاء لقبيلة صغيرة ، أعضاؤها يعرف جميعهم بعضهم بعضا ، هو

شئ بعيد جدا ، فى الواقع ، من نوع الولاء لدولة عظمى ،
الذى حل محله فى العالم الحديث • وحتى ما تبقى من الولاء
الأكثر بدائية ، يتعرض للاختفاء فى التنظيم الجديد الذى
تستدعيه الأخطار الحالية • فيمكن لرجل انجليزى أو
اسكوتلندى أن يشعر بالولاء الفريزى نحو بريطانيا ، وقد
يعرف ما يملك شيكسبير قوله عنها ، ويعلم أنها جزيرة لها
حدود كلها طبيعية ، وهو على علم بالتاريخ الانجليزى ، على
الأقل - فيما يختص بأنه مجيد ، ويعلم أن الناس على القارة
يتحدثون لغات أجنبية •

ولكن اذا قدر للولاء لبريطانيا أن يحل محله ولاء للاتحاد
الغربى ، فستتجد الحاجة لوعى بالثقافة الغربية كشئ له
وحدة تتعدى الحدود القومية - ذلك لأنه بصرف النظر عن
هذا - فهناك دافع هو حافز الخوف من الأعداء الخارجيين •

ولكن الخوف حافز سلبي ، ويصبح غير فعال فى لحظة
النصر • واذا قورن بحب مواطن اغريقى لمسقط رأسه ،
يتضح أن تأثير الولاء المؤسس على الخوف فقط ، على غرائز
وانفعالات الرجال والنساء ، فى غياب أخطار وشيكة وملعة ،
يكون أقل منه كثيرا •

وكانت للحكومة وظيفتان ، من أقدم الأزمنة التى
قامت فيها ، احدهما سلبية ، والثانية ايجابية • وكانت
وظيفتها السلبية منع العنف الخاص ، وحماية الحياة
والملكية ، وسن القانون الجنائى ، وضمان تنفيذه •

ولكن ، بالاضافة الى هذا ، كان لها هدف ايجابى ، وهو
تسهيل تحقيق الرغبات ، التى تعتبر عامة ، للفائضية العظمى
من المواطنين • وكانت الوظائف الايجابية للحكومة ، فى
معظم الأزمنة ، محصورة غالبا فى الحرب • فاذا أمكن هزيمة
عدو وضم اقليمه ، فان كل فرد فى الأمة المنتصرة يحقق
كسبا بدرجة كبيرة أو صغيرة •

ولكن الوظائف الايجابية للحكومة تضخمت الآن بدرجة

بالغة • فهناك قبل كل شيء التعليم ، الذى يعتمد ، ليس فقط ، على تحقيق تحصيل مدرسى ، ولكن أيضا على غرس أنواع معينة من الولاء ، ومن المعتقدات ، وهذه هى تلك التى تعدها الدولة مرغوبا فيها ، وفى بعض الأحيان ، بدرجة أقل ، تلك المطلوبة من هيئة دينية • ثم هناك مشروعات صناعية ضخمة - وحتى فى الولايات المتحدة ، التى تحاول تقليص أنشطة الدولة الاقتصادية الى أقصى درجة ممكنة ، فان سيطرة الحكومة على مثل هذه المشروعات ، تزداد بسرعة • وبالنسبة للمشروعات الصناعية ، هناك فارق بسيط ، من وجهة النظر السيكولوجية ، بين هذه التى تشرف عليها الدولة ، وتلك التى تديرها هيئات خاصة • وفى كلتا الحالتين هناك حكومة - هى فى الواقع - ان لم يكن بالقصد - بعيدة عن أولئك الذين تشرف عليهم • وأعضاء الحكومة فقط - سواء فى دولة أو فى هيئة كبرى - هم الذين يمكنهم الاحتفاظ بشعور بالسبق الفردى ، وهناك لا محالة ، اتجاه الحكومات للنظر لأولئك الذين يعملون معها ، ليس أكثر أو أقل من نظرتها لآلاتها ، وبتعبير آخر ، كمجرد وسيلة ضرورية • وتميل باستمرار الرغبة فى تعاون سلس ، نحو زيادة حجم الوحدات ، وبناء عليه ، الى تقليص عدد أولئك الذين مازالوا يملكون سلطة السابق •

والأسوأ من كل شيء ، من وجهة نظرنا الحاضرة ، هو النظام الذى يوجد فى مصانع كبيرة فى بريطانيا ، حيث تسيطر ، باستمرار ، على أولئك الذين لهم سبق اسمى ، ادارة مدنية ، تملك فقط حق رفض القرار ، دون واجب التنفيذ ، وبذلك تكتسب سيكولوجية سلبية ، تميل على الدوام للحظر • وفى ظل نظام كهذا يتحول النشاط لليأس ، وأولئك الذين كان يمكن أن يصبحوا نشطاء فى بيئة أكثر أملا ، يميلون لأن يصيروا كسالى وتافهين • ولا يحتمل تأدية وظائف الدولة الايجابية بنشاط أو كفاءة ، ويحتمل أن علم الحشرات الاقتصادية يمكن أن يحقق أرباحا أضخم بكثير مما يحققه فى الوقت الحاضر ، ولكن هذا يتطلب اعتماد

رواتب لعدد كبير من علماء الحشرات • وتؤمن الحكومة فى الوقت الحاضر بأن سياسة جريئة لدرجة توظيف علماء حشرات يجب فقط أن تطبق بحذر • وهذا - بدون شك - هو رأى الرجال الذين اكتسبوا العادة التى يراها المرء بين الآباء غير الحكماء - عادة قول « لا تفعل هذا » دائما ، دون انتظار التفكير فيما اذا كان « هذا » يسبب أى أذى • ومثل هذه الأضرار يصعب كثيرا تحاشيها حيثما يوجد تحكم من بعيد ، وهناك احتمال وجود الكثير من التحكم البعيد فى أى منظمة ضخمة للغاية •

وسأبحث فى محاضرة تالية ما يمكن عمله لتخفيف هذه الأضرار ، دون فقد المزايا المذكورة للتنظيمات على المستوى العريض • ويجوز أن تكون الاتجاهات الحالية نحو المركزية ، قوية بدرجة لا يمكن مقاومتها - قبل أن تؤدى الى كارثة ، وكما حدث فى القرن الخامس ، أن النظام بكامله يجب أن ينهار مع كل العواقب التى لا يمكن تحاشيها من فوضى وفقر ، قبل أن تستطيع البشرية أن تكتسب من جديد تلك الدرجة من الحرية الشخصية ، التى بدونها ، تفقد الحياة نكهتها • وانى أتمنى ألا تكون هذه هى الحال ، ولكن من المؤكد أنها ستكون كذلك ، الا اذا تبين الخطر ، والا اذا اتخذت اجراءات فعالة لمقاومته •

وفى هذه الصورة الموجزة للتغيرات المتصلة بالتماسك الاجتماعى التى حدثت فى أزمنة التاريخ ، يمكننا ملاحظة حركة مزدوجة الأبعاد :

فمن جهة - هناك تطور دورى من نوع من الادارة - متسبب وبدائى ، الى حكومة أكثر تنظيما بالتدرج ، تشمل مساحة أوسع ، وتتحكم فى قسم أكبر من حياة الأفراد • وعند مرحلة معينة من هذا التطور ، عندما تحققت أخيرا زيادة كبيرة فى الثروة والأمن ، ولكن لم تختف بعد حيوية ومغامرة العصور الأكثر همجية ، هناك احتمال أن تتحقق انجازات عظيمة من نوع الحضارة الزاحفة • ولكن عندما

تصبح الحضارة الجديدة ثابتة النمط ، وعندما تكون الحكومة قد ملكت من الوقت ما يسمح بتدعيم سطوتها ، وعندما تكون العادات والتقاليد والقانون قد أرست قواعد دقيقة بدرجة تكفى لكبت روح المغامرة ، فإن الحضارة المعنية تدخل فى مرحلة ركود - ويمتدح الرجال مآثر أسلافهم ، ولكنهم لا يستطيعون مجاراتهم حالياً ، ويصير الفن تقليدياً ، وتختنق العلوم باحترام السلطة .

وهذا النوع من التطور الذى يتلوه تحجر يوجد فى الصين والهند ، وفى Mesopotamia (١٠) ومصر ، وفى العصور الاغريرومانى - وتأتى النهاية عادة عن طريق الغزو الأجنبى : وهناك حكم وأسس قديمة لمحاربة الأعداء القدامى ، ولكن عندما يظهر عدو من نوع جديد ، فإن المجتمع الأقدم لا يملك القابلية للتكيف لاتباع الحكم والأسس الجديدة التى تستطيع وحدها تحقيق الأمن . وإذا كان الغزاة - كما يحدث كثيراً - أقل مدنية من المغلوبين ، فمن المحتمل ألا تكون لديهم المهارة اللازمة لإدارة الحكومة لامبراطورية كبيرة ، ولا للحفاظ على التجارة على نطاق واسع . وتكون النتيجة تضائل الشعب ، ومعجم الوحدات الحكومية ، وقوة الرقابة الحكومية ، وبالتدريج ، فى الظروف الجديدة شبه الفوضوية ، تعود الرقابة الحيوية ، وتبدأ دورة مرحلة جديدة .

ولكن بالإضافة الى هذه الحركة المرحلية ، هناك حركة أخرى عند قمة كل دورة ، تكون فيها المساحة التى تحكمها دولة واحدة ، أكبر منها فى أى وقت سابق ، ودرجة التحكم التى تمارسها السلطة على الفرد أكثر شدة عنها فى أى تأوج سابق . فالامبراطورية الرومانية كانت أوسع من كل من الامبراطوريتين البابيلونية والمصرية ، وامبراطوريات اليوم أكبر من الامبراطورية الرومانية . ولم يحدث أبداً فى التاريخ السابق أن قامت دولة كبرى بالتحكم فى مواطنيها بدرجة كاملة كما يحدث حالياً (★) فى الاتحاد السوفيتى ، ولا حتى فى بلاد غرب أوروبا .

(★) يلاحظ تاريخ الحاضرة (٤٨ - ١٩٤٩) . (المترجمة)

ولما كانت رقعة الأرض محدودة المساحة ، فان هذا الاتجاه ، ان تم يوقف ، لا بد وأن يؤدي الى خلق دولة عالمية واحدة (★) . ولكن طالما ليس للعدو الخارجى وجود يعزز التماسك عن طريق الخوف ، فان الأجهزة السيدولوجية تغدو غير صالحة بعد ذلك . ولن يكون هناك مجال للوطنية فى شئون الحكومة العالمية - وسوف يصبح ضروريا ايجاد القوة ابدافعة فى الصالح الذاتى والاحسان ، بدون الميراث القوية مثل الكراهية والخوف . هل يمكن لمثل هذا المجتمع ان يتثبت؟ ولو ثبت فهل يكون فى استطاعته التقدم ؟ هذه اسئلة صعبة - وسأقدم فى المحاضرات التالية بعض الاعتبارات التى يجب أخذها فى الحسبان اذا كان سيجاب عليها .

ولقد تحدثت عن حركة ذات بعدين فى التاريخ السابق - ولكنى لا أعتقد أنه يمكننا اكتشاف أى شىء مؤدد او حتمى بالنسبة لهذه القوانين المتصلة بالتطور التاريخى . ويمكن للمعرفة الجديدة ان تجعل مجرى الاحداث مختلفا تماما عما كان من شأنه أن يكون فى غيابها - وكان هذا على سبيل المثال ، نتيجة لاكتشاف أمريكا . والتشريعات الجديدة ، كذلك ، يمكن أن تحدث تأثيرات لم يكن فى الامكان التنبؤ بها ، وأنا لا أتصور ، كيف كان يمكن لاي روماني فى عصر يوليوس قيصر أن يتنبأ بأى شىء مثل الكنيسة الدبوسية . وما من شخص فى القرن التاسع عشر، ولا حتى ماركس (★★) تنبأ بالاتحاد السوفيتى .

ولمثل هذه الأسباب فان كل التنبؤات بالنسبة لمستقبل البشرية يجب التعامل معها فقط كنظريات افتراضية قد تكون جديرة بالدراسة . وأعتقد انه بينما تكون كل التنبؤات المحددة طائشة ، فهناك احتمالات معينة غير مرغوب فيها ، ومن الحكمة أخذها فى الاعتبار . فمن جهة يمكن للحرب المدمرة التى تستمر طويلا ان تسبب انهيارا فى

(★) يلاحظ ما حدث من تحقيق هذه النبوءة فى ١٩٩٢ بعد وفاة راسل بربع قرن تقريبا . (المترجمة)

(★★) دور ماركس معروف فى التاريخ الحديث وفى الاتحاد السوفيتى سابقا .
(المترجمة)

الصناعة فى كل الدول المتحضرة ، وأن تعود الى حالة فوضوية على نطاق ضيق - كالتى سادت فى أوروبا الغربية بعد سقوط روما . ومن شأن هذا أن يتضمن تضاوؤا بالغا فى الشعب - وعلى الأقل - الى وقت ما ، توقف الكثير من الأنشطة التى نعدّها سيمات مميزة لطريقة حياة متحضرة . ولكن قد يبدو معقولا ، أن نؤمل أنه ، كما حدث فى العصور الوسطى ، يمكن استعادة حد أدنى كاف ، من التماسك الاجتماعى ، وأن تسترد بالتدريج المساحة المفقودة .

وهناك مع ذلك - خطر آخر ، ربما يكون حدوثه أكثر احتمالا :

فقد جعلت التقنيات الحديثة فى الامكان تحقيق قدر جديد من احكام الرقابة الحكومية - وقد استغلت هذه الامكانية تماما فى الدول الاستبدادية . وربما يكون الأمر أنه ، تحت ضغط الحرب ، أو الخوف من الحرب ، أو كنتيجة لغزو استبدادى ، يمكن أن يتناقص عدد أقاليم العالم التىبقى فيها بعض القدر من الحرية الفردية . وحتى فى هذه الاقاليم - تصبح الحرية مقيدة أكثر فأكثر . وليس هناك سبب قوى لافتراض أن النظام الناتج سيكون غير مستقر - ولكن من شبه المؤكد أنه سيكون جامدا وغير تقدمى ، وأنه سيجلب معه عودة للمساوىء العتيقة : العبودية والتعصب الأعمى وعدم التسامح والبؤس المدقع لغالبية البشر ، وهذا فى نظرى بلاء ، من الأهمية البالغة أن نأخذ حذرنا منه . ولهذا السبب يصبح التأكيد على قيمة الفرد أكثر ضرورة الآن من أى وقت سابق .

وهناك فكرة خاطئة أخرى من المهم تحاشيها . فأنا أرى حقا - كما جادلت قبلا ، أن ما هو فطرى فى الطبيعة البشرية ، يحتمل ألا يكون قد تغير كثيرا أثناء مئات الآلاف من السنين ، ولكن ما هو فطرى يشكل فقط قطاعا صغيرا من البناء الذهنى للانسان الحديث . ولا أود أن يستنتج أى أحد مما قلته قبلا أنه فى عالم بدون حرب سيكون هناك بالضرورة

شعور بالكبت الغريزي . . فالسويد لم تدخل حربا بالمرّة منذ سنة ١٨١٤ ، أى لفترة أربعة أجيال (★) ، ولكنى لا أعتقد أنه يمكن لأحد أن يدعى أن السويديين قد عانوا فى حياتهم الغريزية نتيجة لهذا الالفاء . وإذا نجح البشر فى الفاء الحرب ، فلن يكون صعبا ايجاد منافذ أخرى لحب المغامرة والمخاطرة . . ولم تعد المنافذ القديمة ، التى حققت فى وقت ما - أغراضا بيولوجية - (لم تعد) تفعل هذا حاليا ، ولهذا فالمنافذ الجديدة ضرورية . ولكن ، ليس فى الطبيعة البشرية ما يضطرنا للاستسلام للوحشية المتواصلة . ان دوافعنا الأقل نظامية تكون خطرة فقط عندما ننكرها أو نسيء فهمها . وإذا تم تحاشي هذا الخطأ أمكن حل مشكل تضمينها فى نظام اجتماعى جيد ، بالاستعانة بالذكاء وحسن النية .

(★) يلاحظ تاريخ المحاضرات (٤٨ - ١٩٤٩) (المترجمة) ،

(دور الفردية)

اقترح فى هذه المحاضرة أن أبحث - فى الأهمية من حيث كل من الخير والشر ، للمخافز والرغبات التى لها علاقة ببعض أعضاء المجتمع وليس بكلهم . فالصيد والحرب أنشطة يمكن لرجل أن ينجح فيها أكثر من رجل آخر ، ولكن الكل فيها يتقاسمون غرضاً مشتركاً - وطالما كانت الأنشطة التلقائية للإنسان من النوع الذى توافق عليه وتشترك فيه كل القبيلة ، فإن سبقه لا يصادف كبعضاً كثيراً من الآخرين داخل القبيلة ، وحتى حركاته الأكثر تلقائية تتوافق مع نمط السلوك المعترف به .

ولكن بازدياد تحضر الناس ، يظهر اختلاف متزايد بين أنشطة رجل وآخر ، والمجتمع يحتاج ، كشرط لرخائه ، عدداً معيناً من الأفراد الذين لا يتوافقون تماماً مع النوع العام . وعملياً ، فكل تقدم فنى أو أخلاقى أو ذهنى ، قد اعتمد قبلاً على مثل أولئك الأفراد الذين كانوا ومازالوا عاملاً حاسماً فى فترة الانتقال من الهمجية إلى الحضارة . وإذا كان على مجتمع ما أن يحرز تقدماً ، فإنه يحتاج إلى أفراد استثنائيين ، تكون أنشطتهم - بالرغم من كونها مفيدة ، مغايرة للنوع الذى يجب أن يكون عاماً . وهناك دائماً ، فى المجتمع فائق التنظيم ، ميل لإعاقة أنشطة مثل هؤلاء الأفراد بإفراط ، ولكن من جهة أخرى - إذا لم يمارس المجتمع أى رقابة ، فإن نفس نوع السبق الفردى ، الذى يجوز أن ينتج مجداً قيماً ، يمكن أيضاً أن ينتج مجرماً . والمشكل ، مثل كل المشاكل التى تصادفنا ، هو مشكل توازن ، فحرية أقل من اللازم تأتى بالركود ، وحرية أكثر من اللازم تؤدى إلى الفوضى .

وهناك طرق كثيرة يمكن لفرد ما أن يختلف فيها عن أغلب الأعضاء الآخرين في مجموعته • فقد يكون فوضويا أو مجرما بدرجة استثنائية ، وقد تكون له ملكة فنية نادرة ، ويمكن أن يكون له ما يعترف به في الوقت المناسب كحكمة جديدة في مسائل العقيدة والأخلاق ، ويمكن أن تكون له قدرات ذهنية استثنائية • ويبدو أنه ، منذ فترة بعيدة جدا في تاريخ البشرية ، كان لابد من وجود بعض التمييز في الوظيفة • فالصور الموجودة في كهوف البرانس (١١) التي صنعها رجال العصر الباليوليثي Paleolithic (١٢) على درجة عالية من الجودة الفنية ، ولا يمكن للمرء أن يفترض بسهولة أن كل الرجال ، في ذلك الوقت ، كانوا قادرين على مثل هذا العمل الرائع • ويبدو أكثر احتمالا أن أولئك الذين وجدت لديهم ملكة فنية كانوا أحيانا يسمح لهم بالبقاء في البيت لعمل صور ، بينما باقى أعضاء القبيلة يذهبون للصيد • ولا بد أن الرئيس والقسس كانوا قد بدءوا منذ وقت بعيد جدا يختارون لميزات حقيقية أو مفترضة • فرجال الطب كانوا يستطيعون العمل بالسحر ، وكانت روح القبيلة ، بمعنى ما ، مجسدة في الرئيس • ولكن منذ قديم الزمان ، كان هناك دائما اتجاه لكل نشاط من هذا النوع لأن يصبح فرديا • فالرئاسة في القبيلة أصبحت وراثية ، ورجال الطب أصبحوا طبقة منفصلة ، والمفنون المعترف بهم أصبحوا نماذج أصلية لأمرء وشعراء عندنا • وكان من الصعب دائما على المجتمعات ، أن تعترف بما هو ضرورى للأفراد الذين سيقومون بالنوع الاستثنائي من المساهمة التي أفكر فيها ، وهى بالذات عناصر الوحشية ، والانفصال عن المجموع ، وتسلب حوافز نادرة عليهم ، حوافز لم تكن فائدتها واضحة للجميع دائما •

وأود أن أبحث في هذه المعاصرة علاقة الرجل الاستثنائي بالمجتمع ، والظروف التي تجعل من السهل على مميزاته غير العادية أن تكون ثمرة اجتماعيا • سوف أبحث

هذا الموضوع ألا فى الفن - ثم فى العقيدة والأخلاق -
وأخيرا فى العلوم .

فالفنان لا يلعب فى وقتنا الحاضر ، فى الحياة العامة ،
دورا بنفس القدر من الأهمية تقريبا مثلما كان يفعل فى
عصور كثيرة سابقة . وهناك اتجاه فى أيامنا لازدراء شاعر
البلاط ، ولاعتبار أن الشاعر يجب أن يكون شخصا وحدانيا
يعلن شيئا لا يرغب العامة فى سماعه . وتاريخيا كانت
المسألة مختلفة جدا . فهو ميروس وفيرجيل وشيكسبير كانوا
شعراء بلاط ، تغنوا بأمجاد قبيلتهم وتقاليدها النبيلة .
(بالنسبة لشيكسبير يجب أن أعترف بأن هذا حقيقى جزئيا ،
ولكنه ينطبق بالتأكيد على مسرحياته التاريخية) . وقد خلد
شعراء ويلز أمجاد الملك آرثر - واحتفل بهذه الأمجاد فيما بعد
الكتاب الانجليز والفرنسيون . وقد شجعهم الملك هنرى
الثانى لأسباب استعمارية وكانت أمجاد البارثينون
وكاتدرائيات العصور الوسطى مرتبطة عن قرب بالموضوعات
العامة . والموسيقى - رغم أنها كانت تلعب دورها فى
الخطوبة - قامت أولا لتعزيز الشجاعة فى المعركة - وهو
غرض - بناء على رأى أفلاطون - ينبغى ان تقتصر عليه
قانونا . ولكن يبقى القليل من أمجاد الفنان العتيقة هذه فى
العالم الحديث ، باستثناء زمار الفيلقة فى الهايلاندز (١٣)
(سكوتلاندا) ونحن ما زلنا نمجد الفنان ، ولكننا نعزله عنا ،
ونفكر فى الفن كشيء منفصل ، لا كجزء مندمج فى حياة
المجتمع . والمهندس فقط لأن فنه يخدم غرضا تقنيا ، يحفظ
بقدر من مركز الفنان العتيق .

ولا يرجع تدهور الفن فى وقتنا فقط الى أن الوظيفة
الاجتماعية للفنان ليست بالأهمية التى كانت لها فى الأيام
السابقة ، بل يرجع أيضا لحقيقة أن السرور التلقائى لم نعد
نشعر بأهمية القدرة على الاستمتاع به . فبين الشعوب غير
الراقية نسبيا مازالت الرقصات والأغاني الشعبية مزدهرة ،
ومازال باقيا فى كثير من الناس جزء من الشاعر - ولكن

بازدياد تحول الرجال الى صناع ومجندين ، يصبح نوع المتعة العام عند الأطفال مستحيلا بالنسبة للبالغين ، لأنهم يفكرون باستمرار في الشيء القادم ، ولا يمكنهم ان يتركوا انفسهم يندمجون في اللحظة الحاضرة .

وهذه العادة من التفكير في الشيء القادم ، قادرة على القضاء على أى نوع من التميز الجمالى - أكثر من أى عادة ذهنية أخرى يمكن تصورها . واذا قدر للفن أن يبقى ، بأى معنى مهم ، فلن يكون ذلك بإنشاء أكاديميات جادة ، ولكن بإعادة الاستحواذ على القدرة على المسرات والأحزان التى تغمر القلب ، والتى قضت عليها جميعا عادات العيطة والنظر لبعيد .

ولقد كان الرجال المعترف بهم تقليديا كمظماء البشرية مجددين دائما فى العقيدة والأخلاق . وبالرغم من القدسية التى نسبت اليهم فى العصور التالية ، فقد عاش أغلبهم حياتهم فى صراع - بدرجة كبيرة أو صغيرة - مع مجتمعاتهم هم . وقد قام التقدم الأخلاقى أساسا على الاعتراض على العادات القاسية ، ومحاولات توسيع مجالات التعاطف البشرى . وقد اختفت التضحية بالبشر تليا بين الاغريق فى بداية الحقبة التاريخية - ونادت تعاليم الرواقيين (Stoics) (١٤١) بوجوب قيام التعاطف ليس فقط بين الاغريق الأحرار ولكن أيضا بين البرابرة والعبيد - وفى الواقع بين كل البشر . ونشرت كل من البوذية والمسيحية نظرية مشابهة على رقعة بعيدة ومتسعة . واتخذت العقيدة ، التى كانت أصلا جزءا من جهاز التماسك القبلى، تشجع على الصراع فى الخارج بنفس درجة التعاون فى الداخل - (اتخذت) صبغة أكثر عالمية ، وحاولت الارتفاع على الحدود الضيقة التى كانت الأخلاقيات البدائية قد وضعتها . ولا غرابة فى أن المجددين فى العقيدة كانوا ممقوتين فى عصرهم ، اذ كانوا يسعون لحرمان الناس من متعة القتال ومن متع الثأر الوحشية .

والوحشية البدائية ، التى كانت قد هدت كفضيلة ،

غدت حينئذ تعد رذيلة ، وأدخلت ازدواجية مفرطة بين الأخلاقيات وبين الحياة الفريزية ، أو بالأحرى بين الأخلاقيات التى لقنها أولئك الذين كانت النزوات البشرية قوية لديهم وبين الأخلاقيات التقليدية التى كان يفضلها أولئك الذين لم يكن لديهم ، أى تعاطف مع غيرهم خارج مجتمعهم . ولقد كان للمجددين فى العقيدة والأخلاق أثر بالغ على الحياة البشرية ، ولو أنه لم يكن دائما - كما يجب علينا أن نعترف - الأثر الذى كانوا يهدفون لتحقيقه - ولكنه على العموم كان مفيدا جدا .

وحقيقى أننا - فى القرن الحالى ، رأينا فى أجزاء مهمة من العالم ، ضياعا لقيم أخلاقية كنا نظنها فى أمان تام ، ولكن لنا أن نؤمل ان هذا التراجع لن يدوم طويلا . ونحن ندين به للمجددين الأخلاقيين ، الذين حاولوا فى البداية أن يجعلوا الأخلاقيات مسألة عالمية ، لا مجرد قبلية ، بحيث استحدثوا اعتراضا على العبودية ، وشعورا بالواجب نحو أسرى الحرب ، وتحديدات لسلطات الأزواج والآباء ، واعترافا (ولو كان غير كامل) بأن الشعوب المستعبدة لا يصح أن تكون مجرد موضع استغلال لفائدة مخضعيها . وجدير بنا أن نعترف أن كل هذه المكاسب الأخلاقية قد تعرضت للخطر مع عودة الوحشية القديمة ، ولكنى لا أظن أن التقدم الأخلاقى الذى كانت تمثله سيضيع فى النهاية على البشرية .

والأنبياء والحكماء الذين بدءوا هذا التجديد الأخلاقى ، بالرغم من أن أغلبهم لم يلق التكريم أثناء حياتهم ، فانهم لم يمنعوا مع ذلك من أداء عملهم . وفى الدول الشمولية totalitarian (١٥) الحديثة أصبحت الأمور أسوأ مما كانت عليه فى زمن سقراط (١٦) أو فى زمن الانجيل Gospels (١٧) فى الدول الشمولية totalitarian لا يتعرض المجدد الذى تكره الحكومة آراءه فقط للاعدام ، وهى مسألة قد لا يبالى بها الرجل الشجاع ، بل انه يحرم كليا من العمل على نشر مذهبه . والتجديدات فى مجتمع كهذا

يمكن أن تأتي فقط من جهة الحكومة ، والحكومة الآن - كما كانت في الماضي ، لا يحتمل أن توافق على شيء يتعارض مع مصالحها المباشرة . وفي الدولة الشمولية Totalitarian . تكون أحداث مثل ظهور البوذية أو المسيحية ، شبه مستحيلة ، ولا يمكن لأي مصلح ، حتى بأكثر قدر من البطولة ، أن يحقق أي فاعلية بالمرّة . وهذه حقيقة جديدة في تاريخ البشر ، استحدثت بفضل التحكم المتزايد بدرجة كبيرة في الأفراد ، وجعلها النظام الحكومي الحديث ممكنة - وهي حقيقة مهمة جدا ، تبين الى أي درجة يمكن للنظام الشمولي أن يقضى على أي نوع من التقدم الأخلاقي .

وفي زمننا نحن لا يؤمل فرد له قدرات استثنائية في مستقبل عظيم أو فعالية اجتماعية واسعة ، مثلما كان ممكنا في الماضي ، اذا تفرغ للفن أو للإصلاح الديني والأخلاقي . ومع ذلك فما زالت هناك أربعة أنواع من المستقبل متاحة له ، اذ يمكنه أن يصبح قائدا سياسيا عظيما ، مثل لينين ، ويمكنه أن يحقق سطوة صناعية ضخمة مثل روكيفيلر ، ويمكنه أن يغير العالم باكتشافات علمية - كما يحدث الآن من قبل علماء الطبيعة الذرية ، أو أخيرا - اذا لم تكن لديه القدرات الضرورية لتحقيق أي من أنواع المستقبل هذه ، أو ان كانت الفرصة غير سانحة فيمكن لنشاطه في غياب منفذ آخر ، أن يدفعه الى حياة الجريمة . والمجرمون بالمعنى القانوني ، يندر أن يكون لهم تأثير على مجرى التاريخ ، فمن شأن الرجل ذي الآمال العريضة أن يختار مستقبلا آخر اذا أتيح له .

وارتقاء رجال العلوم مراكز مرموقة في الدولة ظاهرة حديثة . فالعلميون مثل باقي المجددين ، كان عليهم أن يعاربوا ليعترف بهم : وقد نفى بعضهم ، وأحرق بعضهم ، وسجن بعضهم في زنزانات وآخرون أحرقت كتبهم فقط . ولكن بالتدريج ، تبين انهم يمكن أن يضعوا سلطة في يد الدولة . وفي الحرب الحديثة اعترفت كل الحكومات المتحضرة بالعلماء كأكثر الموظفين فائدة ، بافتراض انه يمكن

ترويضهم وارغامهم على وضع خدماتهم تحت تصرف حكومة واحدة بدلا من وضعها تحت تصرف كل البشر .

وسواء أكان للخير أو للشر فيرجع تقريبا كل ما يميز عصرنا عما سبقه الى العلم . ففي حياتنا اليومية ، لدينا النور الكهربائي والراديو والسينما . وفي الصناعة تستعمل ماكينات وقوى تدين بها للعلم . وبسبب زيادة انتاج الأيدي العاملة نستطيع تخصيص نسبة أكبر من طاقاتنا للحروب ، والاستعدادات للحروب عما كان ممكنا من قبل ، ونستطيع ابقاء الصغار في المدارس وقتا أطول بكثير مما كنا نفعل قبلا . وبفضل العلم نستطيع نشر الأنباء والمعلومات المضللة عن طريق الصحافة والاذاعة لكل فرد تقريبا . وبفضل العلم نستطيع جعل الهرب ، بالنسبة لأناس تكرههم الحكومة ، أكثر صعوبة عما كان قبلا . وكل حياتنا اليومية ، وتنظيمنا الاجتماعي - هي ما هي عليه ، بفضل العلم . وكل هذا التطور الشاسع تدعمه الدولة في الوقت الحاضر ، ولكنه نما في البداية متعارضا مع الدولة . وحيث عادت الدولة ، كما في روسيا (★) ، الى نظام سابق ، فسوف تظهر من جديد المعارضة القديمة ، اذا لم تكن الدولة مهيمنة بدرجة لم يعلم بها طغاة العصور السالفة .

ولم تكن المعارضة للعلوم في الماضي مستغربة . فقد أكد رجال العلم أمورا كانت مناقضة لما اعتقده الجميع من قبل - فقلبوا آراء اعتنقت قبلا ، واعتبروا كفاراً . وقد أعلن أناكساجوراس ان الشمس حجر أحمر ساخن ، وأن القمر صنع من الأرض - وبسبب هذا « الكفر » نفى من أثينا . اذ ألم يكن معلوما أن الشمس اله ، وأن القمر الهة ؟ وكانت السطوة على قوى الطبيعة ، التي منحها العلم هي فقط التي أدت قليلا قليلا الى التسامح مع العلماء ، وحتى هذه ، كانت عملية بطيئة جدا ، لأن قدراتهم كانت في البداية منسوبة للسحر .

(★) يلاحظ أن المقصود هنا « الاتحاد السوفيتي » الذي انهار أخيرا . وهذا تنبؤ بما حدث فيه قبل انهياره . (المترجمة)

ولن يكون مستغربا أن تنشأ فى الوقت الحاضر - حركة قوية مناهضة للعلوم ، كنتيجة للأخطار التى تتعرض لها الحياة البشرية بفعل القنابل الذرية ، والتى يمكن أن تسببها الحرب الميكروبية . ولكن مهما يكن شعور الناس بالنسبة لهذه الأهوال ، فانهم لا يجرؤون على التحول ضد رجال العلم ، طالما كانت الحرب محتملة بأى شكل - ذلك أنه اذا كان أحد الطرفين مزودا بالعلماء دون الطرف الآخر ، فيكاد يكون من المؤكد أن الجانب العلمى سوف يكسب .

والعلم ، بقدر تأسيسه على المعرفة ، يجب اعتباره ذا قيمة ، ولكن بقدر اعتماده على التقنية ، تتوقف جدارته بالمديح أو اللوم على استعمال التقنية . وهو فى حد ذاته محايد ، لا خير ولا سيىء ، وأى آراء نهائية يمكن اتخاذها عما يعطى قيمة لهذا أو ذاك يجب أن تأتى من مصدر غير العلم .

ورجال العلم ، بالرغم من تأثيرهم العميق على الحياة الحديثة ، هم بطرق ما ، أقل سطوة من رجال السياسة . والسياسيون فى وقتنا الحاضر أكثر فاعلية بقدر كبير عما كانوا عليه فى أى فترة سابقة فى التاريخ البشرى . وعلاقتهم برجال العلم مثل علاقة الساحر فى « ألف ليلة وليلة » بالجن الذى يطبخ أوامره . ويفعل الجن أعمالا مذهلة ، لم يكن الساحر ليستطيع فعلها بدون مساعدته ، ولكنه يفعلها فقط لأنه مأمور بفعلها ، وليس بسبب أى دافع داخلى . وهكذا الحال بالنسبة لعلماء الذرة فى وقتنا الحاضر : تضع حكومة ما يدها عليهم فى مساكنهم أو فى عرض البحار ، وتأمّرهم بالعمل ، حسب نجاح الأسر ، لبصبحوا عبيدا لأحد الطرفين أو الطرف الآخر . ورجل السياسة - عندما يكون ناجحا - لا يتعرض لمثل هذا الاكراه .

وفى عصرنا الحاضر كانت سيرة حياة لينين مثيرة للدهشة أكبر من أى سيرة أخرى . فبعد أن أعدم أخوه على يد الحكومة القيصريّة ، قضى سنوات فى الفقر والمنفى ، ثم نهض فى خلال شهور قليلة لرأس واحدة من أعظم الدول . ولم تكن هذه

الرئاسة ، مثل رئاسة شركيس (١٨) أو قيصر ، مجرد سلطة للاستمتاع بالترف والتملق ، التي لولا وجوده لاستمتع بها رجل غيره . ولكنها كانت سلطة لتشكيل اقليم شاسع بناء على نمط أبدعه في ذهنه هو ، ليعدل حياة كل عامل وكل مزارع ، وكل شخص ينتمى للطبقة الوسطى ، وليدخل نوعا جديدا تماما من التنظيم ، ويصبح رمزا للنظام الجديد في طول العالم وعرضه ، يعجب به البعض ، ويشجبه كثيرون ، ولكن لا يجهله أحد . وليس في طاقة أى حلم لمجنون بالعظمة أن يكون أكثر روعة .

وكان نابليون ، من قبل ، قد أكد أنك تستطيع فعل كل شيء بحرابك الا أن تجلس عليها ، أما لينين فقد أثبت بطلان الاستثناء .

ولقد كان الرجال الذين برزوا في التاريخ اما محسنين للبشر واما عكس ذلك تماما . وكان البعض مثل عظماء المجددين في العقيدة والأخلاق ، قد فعلوا كل ما في وسعهم ليجعلوا الناس أقل قسوة بعضهم مع بعض - وأقل تحفظا في تعاطفهم . والبعض الثانى مثل رجال العلم ، أعطونا معرفة وادراكا للعمليات الطبيعية ، وهى مهما أسىء استعمالها ، جديرة بأن يعترف بها حد ذاتها كأشياء رائعة . والبعض الثالث مثل عظماء الشعراء والمؤلفين والرسامين ، أتاحوا فى العالم ضروبا من الجمال والروعة تؤدى الكثير - فى أوقات المعاناة - لجعل مشهد المصير البشرى محتملا . ولكن بعضا آخر متساوين معهم فى المقدرة وفى التأثير بطرقهم الخاصة - قد فعلوا العكس تماما . وأنا لا أستطيع التفكير فى أى مكسب حققه البشر بوجود جنجزيخان ، ولا أعرف أى خير جاء من روبسبير (١٩) ، وبالنسبة لى شخصيا لا أجد سببا للامتنان من لينين .

ولكن هؤلاء الرجال جميعا ، خيرين وشريرين معا ، كانوا يتصفون بصفة لا أحب أن تختفى من العالم ، وهى صفة النشاط والسبق والاستقلال فى التفكير والرؤية

التصورية • والشخص الذى يتصف بهذه الصفات قادر على عمل خير كثير ، أو اتيان ضرر جسيم ، واذا أردنا للبشر ألا يركن للخمول ، فلا بد أن يجد هؤلاء الرجال الاستثنائيون مجالا - ولو اننا نتمنى أن يكون هذا المجال مكرسا لخير البشرية •

وقد يكون الاختلاف أقل مما نظن أحيانا ، بين نفسيتى مجرم كبير وسياسى عظيم • وربما لو قام ساحر باستبدال كابتن كيد (٢٠) والاسكندر الأكبر كل منهما بالآخر ، عند ولادتهما - لحقق كل منهما الحياة والمستقبل، اللذين حققهما الآخر فى الواقع • ويمكن قول نفس الشيء عن بعض الفنانين : فمذكرات بنفيوتو شيللىنى لا تعطى صورة رجل يكن الاحترام للقانون مثل ما نتوقعه من كل مواطن سليم التفكير •

وفى العالم الحديث - وحتى أبعد من ذلك - فى عالم المستقبل القريب بقدر ما يسمح لنا بالتخمين - يكاد يكون وسيصبح مستحيلا ، على الفرد أن يؤدى انجازا مهما ، اذا لم يستطع الهيمنة على مؤسسة ضخمة • فان كان فى وسعه أن يجعل من نفسه رئيسا لدولة مثل لينين ، أو محتكرا لصناعة عظمى مثل روكيفيللر ، أو مراقبا لحسابات بنك مثل بيير بونت مورجان الكبير ، لأمكنه أحداث تأثيرات ضخمة فى العالم • وبالمثل يمكنه ، لكونه عالما ، أن يقنع حكومة ما ، بأن عمله يمكن أن يكون مفيدا فى الحرب •

ولكن الشخص الذى يعمل بدون مساعدة احدى المؤسسات ، كنبى يهودى (عبرى) أو شاعر أو فيلسوف منعزل مثل سبينوزا ، لا يمكنه فيما بعد أن يؤمل فى نوع الأهمية التى كانت لهؤلاء الناس فى الأزمنة السابقة • ويصدق التغيير على العلماء كما يصدق على الأشخاص الآخرين • فقد أدى علماء الماضى عملهم الى حد كبير كأفراد ، ولكن عالم يومنا يحتاج الى معدات باهظة التكاليف ، ومعمل تجارب به العديد من المساعدين • ويمكنه الحصول على كل هذا بكسب رضى

الحكومة ، أو فى أمريكا ، من أشخاص بالغى الشراء • وهكذا لا يكون بعد ذلك • عاملا مستقلا، ولكن أساسا جزءا لا يتجزأ من احدى المؤسسات الكبرى • وهذا التغيير مؤسف للغاية ، لأن الأعمال التى كان رجل عظيم يستطيع أداءها فى عزلة - كان من شأنها أن تكون أكثر نفعا من تلك التى يستطيعها فقط بمساعدة السلطات الأخرى • والشخص الذى يرغب فى التأثير على شئون البشر يجد النجاح صعبا الا كعبد أو كمستبد • فرجل سياسة يمكنه أن يجعل نفسه رئيسا لدولة، وكمالم قد يبيع مجهوده للحكومة ، ولكنه فى هذه الحالة يتحتم عليه أن يخدم أغراضها هى لا أغراضه هو •

وينطبق هذا ليس فقط على الأشخاص ذوى القدرات النادرة والاستثنائية ، ولكن على مجال واسع من المواهب • وفى العصور التى عاش فيها شعراء عظام كانت هناك أيضا أعداد غفيرة من صغار الشعراء • وعندما كان هناك رسامون عظام ، كانت هناك أيضا أعداد كبيرة من صغار الرسامين • والملحنون الألمان العظام نشأوا فى بيئة كان للموسيقى فيها شأن عظيم ، ووجد العديد من الرجال الأقل مقدرة فرصا للعمل •

وفى تلك الأيام كان الشعر والرسم والموسيقى تشكل جميعها جزءا جوهريا من الحياة اليومية للرجال العاديين ، كما هى الحال بالنسبة للرياضة فقط الآن • وعظماء الأنبياء كانوا اشخاصا برزوا من بين العديد من غيرهم الأقل عظمة • والعجز فى عصرنا - فى مثل هذه الأمور ، هو نتيجة حتمية لحقيقة أن المجتمع متركز ومنظم لدرجة أن السبق الفردى ينخفض الى أدنى حد •

وحيثما ازدهر الفن فى الماضى حدث ذلك كقاعدة بين مجتمعات صغيرة كان لها منافسون بين جيرانها - مثل حكام دول المدن الاغريقية ، والولايات الصغيرة فى عصر النهضة الايطالية ، وبلاطات صغار الملوك الألمان فى القرن الثامن عشر • وكان لا غنى لسكل من هؤلاء الحكام عن عازف

للموسيقى . وفى احدى المرات كان العازف جوهان سباستيان باخ (٢١) - وحتى ان لم يكن هذا - فقد كان مع ذلك حرا فى تقديم أجود ما يستطيع تقديمه . وكان للمنافسة المحلية شأن جوهري فى مثل هذه الأمور . وقد لعب دوره حتى فى بناء الكاتدرائيات ، لأن كل قسيس أراد أن تكون له كاتدرائية أروع من جاره (القسيس) . وكان من المستحب أن تستطيع كل مدينة تطوير ذوق فنى خاص ، يؤدى بهم جميعا الى تنافس متبادل ، وأن تصبح لكل منها مدرستها الخاصة فى الموسيقى والرسم ، ولا تخلو من ازدهار قوى للمدرسة الأخرى . ولكن مثل هذه الأنواع من الوطنية المحلية لا تزدهر بسهولة فى عالم الامبراطوريات والتحول الحر . فرجل من مانشستر لا يشعر نحو رجل من شيفيلد مثلما يفعل رجل من أثينا نحو رجل من كورينثيا ، ولا فلورنسى نحو فينيسى ولكن بالرغم من الصعوبات فانى أظن أن هذا المشكل الخاص باعطاء أهمية للمحليات سوف يعالج اذا قدر للحياة البشرية ألا تصبح مملة باطراد .

ولقد عاش الهمجى - بالرغم من انتمائه لمجتمع صغير - حياة لم يكن المجتمع يعوق فيها سبقه كثيرا . فالأعمال التى أراد أداؤها - عادة الصيد والحرب ، كانت أيضا الأعمال التى أراد جيرانه أداؤها . واذا شعر بميل لأن يصبح رجل طب كان عليه فقط أن يفوز بحظوة فرد ما تفوق فى هذه المهنة ، وهكذا يخلفه فى قدراته السحرية فى الوقت المناسب . واذا كان شخصا ذاهبا استثنائية ، فقد يخترع تحسينات ما فى الأسلحة ، أو مهارات فى الصيد . ولن يضعه هذا أو ذاك فى أى موقف متعارض مع المجتمع ، بل ، على العكس ، يمكن أن يكون موضع ترحيب .

أما الرجل الحديث فيعيش حياة مختلفة تماما - فاذا غنى فى الشارع اعتبر سكران ، واذا رقص وبخه الشرطى لأنه يعوق حركة المرور . ويوم عمله - اللهم الا اذا كان معظوظا بدرجة استثنائية - مشغول كليا بطريقة مملة ، فى

انتاج شيء ذي قيمة ، ليس مثل درع اخيل (٢٢) كعمل فنى جميل ، ولكن أساسا لفائدته . وعندما ينتهى من عمله ، لا يمكنه ، مثل الراعى عند الشاعر ميلتون (أن يروى قصته تحت غصن شجرة (٢٣) الهوثورن « الزعرور البرى » فى الوادى ، لأنه ، فى الغالب ، لا يوجد أى واد فى المكان الذى يعيش فيه ، وان وجد ، فهو ملىء بالعلب الصفيح الفارغة ويكون دائما مهموما بأفكار الغد - على طريقة حياتنا البالغة التنظيم .

ولقد أهمل المسيحيون - من بين وصايا الانجيل - أكثر من غيرها ، الوصية التى تنهى عن التفكير فى الغد . فاذا كان حريصا فان تفكيره فى الغد سيقوده الى الادخار - وان كان طائشا فسيجعله متهيبا من أن يكون غير قادر على سداد ديونه . وفى كلتا الحالتين تفقد اللحظة نكهتها . فكل شيء منظم ، وليس هناك شيء تلقائى ، وقد أسس النازيون مبدأ « القوة عن طريق السرور » ولكن « السرور » الذى شخصته الحكومة قد لا يكون سارا جدا .

وبالنسبة لأولئك الذين يمكن أن تكون لهم - بطريقة مختلفة - تطلعات قيمة ، فان المركزية كفيلة بوضعهم فى موقع التنافس مع عدد ضخم جدا من المتبارين ، والخضوع لمستوى ذوق موحد أكثر من اللازم . فان كنت ترغب أن تكون رساما ، فلن تقنع بأن تضع نفسك فى مواجهة الأشخاص ذوى الرغبات المماثلة فى بلدتك ذاتك ، بل ستذهب الى احدى مدارس الرسم فى عاصمة ما ، حيث يحتمل أن تستنتج أنك متوسط القدرات ، وعندما تصل الى هذه النتيجة ، فقد تثبط همتك بدرجة أن تشعر بالاغراء بأن تلقى بفرشاةك بعيدا وتنصرف للاستثمار أو لشرب الخمر ، لأن درجة معينة من الثقة بالنفس أساسية للانجاز . وفى ايطاليا فى عصر النهضة كان فى امكانك أن تؤمل أن تكون أحسن رسام فى سينا (٢٤) ، وكان من شأن هذا المركز أن يكون مشرفا جدا . ولكنك لن تقنع الآن باكتساب تدريبك كله فى بلدة صغيرة

واحدة ، وتجلس مواجهها لجيرانك • ونحن نمرف أكثر من
اللازم ونشعر أقل من اللازم • وعلى الأقل نحن نشعر أقل من
اللازم بتلك المشاعر الخلاقة التى تنبع منها حياة جديدة •
ونحن سلبيون بالنسبة لما هو مهم ، وننشط فقط بالنسبة
للأمور التافهة • وإذا شئنا أن ننقذ الحياة من الملل الذى
لا تخففه الا الكوارث ، لتحتم علينا ايجاد وسائل لاستعادة
السبق الفردى ، ليس فقط فى الأمور التافهة ، ولكن فى تلك
التي تهم بالفعل : وأنا لا أقصد أنه يتحتم علينا القضاء على
تلك القطاعات فى النظام البشرى التى يعتمد عليها البقاء
الفعلى لشعوب كبيرة ، ولكنى أقصد أنه يجدر بالنظام أن يكون
أكثر مرونة وأكثر تحررا عن طريق الحكم الذاتى المعلى ،
وأقل اضطهادا للروح البشرية عن طريق توسعه غير
الشخصى ، عما وصل اليه عن طريق نموه السريع بدرجة
لا تحتمل ، درجة غدت طرق تفكيرنا وشعورنا عاجزة عن
مسايرتها •

★ ★ ★

الصراع بين التقنية والطبيعة البشرية

يختلف الانسان عن باقى الحيوانات فى نواح عديدة - احدها هي أنه أقل ميلا للانشغال بأنشطة غير سارة فى حد ذاتها ، لأنها وسائل لغايات يريد لها . وتؤدى الحيوانات أعمالا تبدو فى حد ذاتها من وجهة نظر الباحث البيولوجى أعمالا مفرضة : فالطيور تبني عشوشها ، والسمورات (٢٥) تبني سدودا - ولكنها تأتى هذه الأفعال غريزيا ، لأن لديها حوافز لفعلها ، لا لأنها تدرك أنها نافعة - وهى لا تمارس التحكم فى النفس ، ولا الحيلة ، ولا بعد النظر ، ولا كبح الدوافع برغبتها . أما البشر فيفعلون كل هذه الأمور . وعندما يؤدون منها قدرا فوق تحمل الطبيعة البشرية ، فانهم يشعرون بمعاناة سيكولوجية . وفى طريقة الحياة المتحضرة لا يمكن تحاشي جزء من هذه المعاناة ، ولكن الكثير منها ليس ضروريا ، ويمكن تحاشيه بنوع مختلف من التنظيم الاجتماعى .

ولم يعان الرجل البدائى من هذا الصراع بين الدوافع والوسائل الا قليلا . اذ كان كل من الصيد والعراك والتكاثر ضروريا فى سبيل البقاء والتقدم التطورى ، ولكن هذا لم يكن السبب فى اشتراكه فى هذه الأنشطة ، بل انه اشترك فيها لأنها كانت تجلب له السرور . وقد أصبح الصيد ، بمرور الوقت ، تسلية للأغنياء غير العاملين ، وكان قد فقد فائدته البيولوجية ، ولكنه بقى مصدرا للمتعة . والعراك من النوع البسيط الذى تولده الحوافز يسمح به الآن فقط للتلاميذ بالمدرسة ، ولكن الولع بالعراك يبقى قائما ، واذا حرم من تنفيس أفضل ، فانه يجد فى الحرب أهم تعبير له .

وعلى أية حال ، لم تغل حياة الرجل البدائي تماما من الأنشطة التي شعر بأنها مفيدة ، بدلا من شعوره داخليا بجاذبيتها . ففي مرحلة مبكرة جدا من التطور البشرى ، بدأ فى صنع الأدوات الحجرية ، وبذلك استهل مرحلة التطور الطويلة التي أدت الى نظامنا الاقتصادى المعقد حاليا . ولكن من المحتمل ، فى العصر الحجرى المبكر ، أن تمتعت الابداع الفنى وتزايد السلطة المتوقع ، تغللتا كل مراحل العمل الشاق . وعندما تكون الرحلة بين الوسائل والغايات غير طويلة جدا ، فإن الوسائل ذاتها تصبح مصدر متعة ، اذا كانت الغايات مرجوة بشغف . فمن أجل اللحظات القصيرة من اللذة عند الهبوط ، يقبل الصبى على عناء الصعود بطوبوجان (مزلقة) الى قمة التل ، ولا حاجة هنا لأن يحفزهُ أحد على العمل بجد ، ومهما تملل أو لهث فهو مع ذلك سعيد . ولكن لو وعدته ، بدلا من الجزاء الفورى - بمعاش فى سن السبعين ، فإن نشاطه يتضاءل سريعا .

ويمكن الايحاء بجهود أكثر مما يبذلها الصبى بالمزلقة ، عن طريق حافز خلاق ، ويبقى مع ذلك تلقائيا . فقد يقضى أحد الأشخاص سنوات عديدة من الشدائد والخطر والفقر ، فى محاولات لتسلق قمة ايفيريست ، أو الوصول الى القطب الجنوبى ، أو اجراء اكتشاف علمى ، ويمكن أن يعيش طول هذه المدة فى انسجام مع دوافعه الذاتية مثل الصبى بالمزلقة ، اذا كان يرغب فى الغاية بشغف ، ويربط كبريائه بالتغلب على العقبات - ذلك أنه كما قال الهندى الأحمر « فيها مجد » .

وبظهور العبودية بدأ الفصل بين هدف العمل وأهداف العامل ، فقد شيدت الأهرامات من أجل مجد الفراعنة ، ولم يكن للعبيد الذين قاموا بالعمل نصيب فى المجد ، بل انهم عملوا فقط خوفا من سوط المشرف . والزراعة عندما قام بها الرقيق أو عبيد الأرض - بنفس الطريقة - لم تجلب أى رضا لأولئك الذين قاموا بالعمل ، وكان مصدر رضاهم فقط انهم بقوا على قيد الحياة ، وأنهم (لحسن الحظ) لم يتعرضوا لألم بدنى .

وفى العصور الحديثة قبل الانقلاب الصناعى ، حدث نتيجة لتضاؤل العبودية ، ونمو الحرف اليدوية ، أن زاد عدد العمال كرؤساء لأنفسهم ، واستطاعوا نتيجة لذلك أن يشعروا ببعض الزهو بما كانوا ينتجون . وكان لهذه الظاهرة الفضل فى ظهور نوع الديموقراطية التى افترضت وجود عدد ضخم من المنتجين المستقلين الى حد ما ، كوضع مناقض لظاهرة المؤسسات الاقتصادية الضخمة التى خلقتها التقنية الحديثة . ولنأخذ فى الاعتبار مصنعا كبيرا - مصنعا للسيارات مثلا - ففرض المؤسسة هو صنع السيارات ، ولكن غرض العاملين هو كسب رواتبهم - ومن وجهة النظر الشخصية لا يوجد غرض مشترك . والغرض الموحد يقوم فقط بين الملاك والمديرين ، ولا يوجد بالمرة بين غالبية أولئك الذين يؤدون العمل .

وهذا الضرر - لا يمكن - الى درجة ملحوظة - فصله عن التصنيع الآلى ، المرتبط بحجم المؤسسة الكبير ، فبسبب العامل الأول لا يقوم شخص واحد بصنع جزء كبير من السيارة ، بل بنصيب صغير فقط من أحد الأجزاء ، ويتطلب قطاع كبير من العمل مهارة محدودة ، ويكون لذلك مملا كليا . وبسبب العامل الثانى (كبر حجم المؤسسة) فان المجموعة التى تشترك جميعها فى صنع سيارة لا توجد بين أعضائها وحدة ولا شعور بالتكافل مثل ما يوجد بين الادارة والموظفين : وهناك تكافل بين المأجورين ، ويمكن أن يقوم تكافل بين الاداريين . ولكن تكافل المأجورين لا علاقة له بالانتاج . فاهتمامهم ينصب على زيادة الأجور وانقاص ساعات العمل . وقد تشعر الادارة ببعض الفخر بالنسبة للانتاج ، ولكن عندما تصبح صناعة ما تجارية بالكامل ، ينشأ اتجاه للتفكير فى الربح فقط ، وهذا يمكن تأمينه غالبا بطريقة أسهل ، عن طريق الاعلان أكثر منه بواسطة تحسين العمالة .

وقد أدى عاملان الى تضاؤل الزهو بين العمال . وكان

الأول هو اختراع العملة النقدية ، والثانى هو الانتاج على نطاق واسع . فقد نشأ عن العملة النقدية تقييم سلعة ما بناء على سعرها ، الذى هو عامل غير تابع منها ، بل هو شىء مجرد تشترك فيه سلع أخرى - والأشياء التى لم تصنع للمبادلة قد يمكن تقييمها لذاتها ، لا لما تستطيع أن تشتريه . وحدائق الأكواخ فى قرى المقاطعات تكون عادة جميلة ، ويمكن أن تكون قد تكلفت جهدا كبيرا ، ولكن ليس الغرض منها أن تحقق أى عائد مالى . وأزياء الريفيين التى لا تكاد تتوفر الآن الا لامتاع السياح كانت تصنعها عائلات من يلبسونها ولم يكن لها ثمن . ومعابد الاكروبوليس وكاتدرائيات العصور الوسطى ، لم تشيد بأى هدف مالى ، ولم يكن فى الامكان مبادلتها . وبتدريج شديد حل الاقتصاد المالى محل اقتصاد كانت السلع فيه تنتج لاستعمال منتجها ، وقد تسبب هذا التغيير فى النظر الى السلع على أنها نافعة بدلا من ممتعة .

وقد دفع الانتاج على نطاق واسع هذه العملية الى أبعاد جديدة . ولنفرض أنك منتج للأزرار - فمهما تكن درجة تميز أزرارك ، فانك لا تحتاج الا لعدد محدود لاستعمالك الخاص ، وترغب فى استبدال كل الباقي بالغذاء والمأوى ، وسيارة وتعليم أولادك ، وهكذا . وهذه الحاجيات المتنوعة لا تشترك فى شىء مع الأزرار سوى القيمة النقدية . والواقع أنه حتى القيمة النقدية للأزرار ليست ذات أهمية بالنسبة لك ، والأمر المهم فعلا هو الربح ، أى زيادة سعر بيعها على تكلفة الانتاج - وهى التى يمكن أن تزيد نتيجة لانتقاص تميزها الذاتى . والواقع أن فقدان الجودة الذاتية يحدث عادة عندما يحل الانتاج على نطاق واسع محل أساليب أكثر بدائية .

وهناك نتيجتان للتنظيم الحديث ، بالاضافة الى تلك التى سبق ذكرها ، نتيجة لتقليل اهتمام المنتج بالبضاعة الناتجة . واحدهما هى بعد المكسب المتوقع عن العمل ، والثانية هى الفصل بين الادارة والعامل .

وبالنسبة لبعد المكسب ، افترض انك مشغول فى الوقت الحاضر ، فى جزء ثانوى من صناعة سلعة ما للتصدير ، ولنقل مرة ثانية ، سيارة . يقال لك بكثير من التأكيد ان عملية التصدير ضرورة من أجل أن تستطيع شراء الغذاء . والغذاء الاضافى الذى يشتري نتيجة لمجهودك لا يأتى اليك شخصيا ، ولكنه يقسم بين الأربعين مليوننا - أو نحو ذلك - الذين يقطنون بريطانيا . واذا تغيبت عن العمل يوما واحدا ، فلن يترتب على ذلك أى أذى مرئى للاقتصاد القومى . ولا ييسر لك الا بجهد ذهنى ، أن تدرك الأذى الذى تجلبه بسبب عدم العمل ، كما لا يمكنك ، الا بجهد أخلاقى أن تؤدى عملا أكثر من اللازم فى سبيل الاحتفاظ بوظيفتك . والأمر برمته يختلف تماما عندما تكون الحاجة واضحة وملحة ، مثلا فى حالة غرق سفينة . وفى حالة غرق السفينة يطيع البحارة الأوامر بدون حاجة لبدء الأسباب فيما بينهم ، لأنهم يشتركون فى غرض ليس بعيدا عنهم ، ووسائل تحقيقه ليست صعبة الإدراك . ولكن اذا كان القبطان مضطرا - مثل الحكومة - لشرح أسس العملية ليبرهن على حكمة أوامره لفرقت السفينة قبل أن ينتهى من محاضرتة .

ولانفصال الادارة عن العامل مظهران : أحدهما هو الصراع المألوف بين رأس المال والعمل ، بينما الثانى هو هم أكثر شمولا ، ويصيب كل المؤسسات الكبرى . وأنا لا أنوى ذكر أى شئ عن الصراع بين العمل ورأس المال ، ولكن بعد الحكومة سواء فى تنظيم سياسى أو اقتصادى ، وفى كل نظام رأسمالى أو اشتراكى ، هو موضوع أقل تداولا ويستحق أن يبحث .

ومهما تكن درجة تنظيم المجتمع ، فهناك لا محالة دائرة صراع كبيرة بين المصلحة العامة ومصلحة هذا القطاع أو ذاك . فزيادة ما فى سعر الفحم قد تكون مفيدة لصناعة الفحم ، وتسهل زيادة أجور المناجم ، ولكنها ليست مفيدة لكل من عداهم . وعندما تعدد الأسعار والأجور من قبل

الحكومة ، فلا بد لكل قرار أن يخيب أمل شخص ما .
والاعتبارات التي ترجح كفة الحكومة عامة للفاية ، وبعبارة
ظاهريا عن الحياة اليومية للعمال ، لدرجة أنه من الصعب
جعلها مقنعة . والمزية المركزة تحظى بالتقدير أكثر من
الضرر المنتشر . ولهذا النوع من الأسباب تجد الحكومة
مقاومة التضخم أمرا صعبا ، وفي حالة استطاعتها ذلك ،
تعرض لفقدان شعبيتها . والحكومة التي تتصرف بدون
زيف لخدمة مصالح الشعب عامة تعرض نفسها لخطر أن
تعد - لدى كل قطاع - متجاهلة ومجافية لمصالح ذلك
القطاع . وهذه صعوبة ، تميل - في حكم ديمقراطي - الى
التفاقم مع كل زيادة في درجة الرقابة الحكومية .

وعلاوة على ذلك فاننا نكون متفائلين أكثر من
اللازم ، أن نتوقع من الحكومات ، حتى ان كانت ديموقراطية
أن تفعل دائما الأفضل للمصالح العام . وقد تحدثت قبلا عن
بعض المساوئ المرتبطة بالبيروقراطية ، وأود الآن أن أبحث
تلك المساوئ المتضمنة في العلاقة بين الموظف والجمهور .

ففي أي مجتمع بالغ التنظيم ، تكون لأولئك الذين
يؤدون أعمالا حكومية - بدءا بالوزراء ونزولا الى أصغر
الموظفين في المكاتب المحلية (تكون) لهم مصالحهم الشخصية ،
وهي التي لا تتماشى مطلقا مع مصالح المجتمع . ويكون أهم
هذه المصالح حب السلطة وكره العمل . فالموظف المدني الذي
يقول لا ، لمشروع ما يشبع فورا حبه لممارسة السلطة ، وعدم
استعداده لبذل الجهد . وهكذا يبدو ، ولدرجة معينة يصبح ،
عدوا لأولئك المفروض أن يعمل لأجلهم . ولنأخذ على
سبيل المثال ، الاجراءات اللازمة للتعامل مع أزمة الغذاء .
فان كنت تملك حصة ، فان صعوبة الحصول على الغذاء قد
تقودك لأن تعمل أكثر اذا كان مسموحا لك أن تستعمل
انتاجك لضافته الى أنصبتك التموينية - ولكن أغلب الناس
باستثناء من يعملون بالزراعة ، يتعين عليهم شراء كل
غذائهم . واذا تركت الأمور دون تدخل ، فان الأسعار سترتفع

كثيرا ، وسيعانى الكل ، باستثناء الأغنياء ، من الجوع بدرجة خطيرة . ولكن رغم صدق هذا ، فان القليلين منا هم الذين يشعرون بالامتنان المناسب لخدمات السيدات العاملات فى مكاتب الغذاء - وأقل من هؤلاء هم الذين يستطيعون - نتيجة للتعب والقلق ، الاحتفاظ بموقف كريم تماما نحو الجمهور . ومن وجهة نظر الجمهور تبدو السيدات (ظلما) مستبدات بجهل - وفى نظر السيدات يبدو الجمهور غبيا ومحتجا ، وهم يفقدون الأشياء ويغيرون عناوينهم باستمرار . وليس من السهل رؤية كيف يمكن - من موقف كهذا - تحقيق انسجام حقيقى بين الحكام والمحكومين . ولقد بقيت الوسائل التى اكتشفت حتى الآن لتحقيق انسجام جزئى بين المشاعر الخاصة والمصالح العامة ، معرضة لاعتراضات بأنواع مختلفة .

وأسهل وأوضح عامل انسجام هو الحرب . ففى حرب صعبة ، عندما يتعرض الحفاظ على الذات القومى للخطر ، يكون من السهل ارغام الجميع على العمل بإرادة ، وإذا اعتبرت الحكومة كفتا ، فان أوامرها تطاع عن طيب خاطر . والموقف مماثل لهذا عند غرق السفينة . ولكن ما من أحد مستعد لتعبيد حوادث غرق السفينة كوسيلة للارتقاء بالنظام فى البحر ، ولا يمكننا نحن أن نعبذ الحروب على أساس أنها تجلب وحدة قومية .

ولا شك أنه يمكن أحداث شىء بنفس الأثر بإثارة الخوف من الحرب ، ولكن اذا استمر الخوف من الحرب شديدا فترة كافية ، فمن المؤكد أن تنتج عنه حرب فعلية ، وبينما تعزز الوحدة القومية فانه أيضا يسبب التراخى والعصبية التى لا سبيل لكبحها .

والتنافس ، أينما يوجد ، حافز بالغ القوة . ولقد شجبه علماء الاجتماع عامة كواحد من العوامل الضارة فى مجتمع

رأسمالي ولكن الحكومة السوفيتية (★) أعادته الى مركز مهم فى تنظيم الصناعة • وطرق ستاكهانوفيل ، التى يجرى فيها عمال معينون على كفاءتهم الاستثنائية ، بينما يعاقب آخرون لسلبياتهم ، هى احياء لنظم العمل بالقطعة التى هاجمتها اتحادات العمال بقوة ونجاح • وليس عندى أدنى شك فى ان هذه النظم لها فى روسيا المزايا التى طالب بها الرأسماليون قبلا ، والعيوب التى أكدتها اتحادات العمال • وهى بالتأكيد غير مناسبة كحل للمشكلات السيكولوجية •

ولكن بالرغم من أن المنافسة ، فى أشكالها العديدة ، تتعرض لاعتراضات حادة ، فانى أرى ان لها دورا سياسيا تلعبه فى تعزيز الجهد اللازم ، وفى بعض المجالات يمكن أن تهيب منفذا ، غير مؤذ نسبيا ، لذلك النوع من الدوافع التى قد تؤدى ، بدونها للحرب • ولا يمكن لى شخص أن ينادى بإلغاء المنافسة فى المباريات • فاذا قرر فريقا كرة متنافسان أن يتعاونوا ، بتأثير الحب الأخوى ، فى وضع الكرة أولا خارج أحد الأهداف ، ثم خارج الهدف الآخر ، فلن يزيد ذلك من سعادة أى شخص ، وهناك أكثر من سبب لقصر الحماس المستمد من المنافسة على البطولات الرياضية • فالمفاضلة بين الفرق أو المحليات أو المنظمات يمكن أن تكون حافزا مفيدا ، ولكن اذا شئنا للمنافسة ألا تصبح قاسية أو مؤذية ، فان عقوبة الفشل يجب ألا تشكل كارثة ، كما يحدث فى الحرب ، أو مجاعة ، كما يحدث فى المنافسة الاقتصادية غير المحكمة ، بل فقدان الزهو فقط • ولا تصبح لعبة كرة القدم رياضة مرغوبا فيها اذا أعدم الفريق المغلوب أو ترك ليموت جوعا •

وفى بريطانيا ، جرت فى السنوات الأخيرة ، محاولة شهمة للتوجه الى الشعور بالواجب • والصدقة ، لابد منها فى الوقت الحاضر ، وزيادة الانتاج هى الطريق الوحيد للخروج من المأزق • وهذا لا يمكن انكاره ، ونداء من هذا

(★) يلاحظ أن المحاضرات أقيمت قبل سنة ١٩٥٠ • وكان هذا الاسم متداولاً حتى

١٩٩١ • المترجمة •

النوع ضرورى بلا شك فى وقت الأزمة • ولكن الشعور بالواجب ، رغم كونه أحيانا قيما ولا غنى عنه ، فهو ليس حلا دائما ، ولا يحتمل أن ينجح على أمد طويل • فهو يرتبط بشعور الكبت ، ومقاومة مستمرة للدوافع الطبيعية ، وهى التى ان استمرت لابد وأن تكون مرهقة ، وأن ينتج عنها تناقص فى النشاط الطبيعى • وإذا روجنا لها - على أساس مبدأ أخلاقى تقليدى بسيط مثل الوصايا العشر Ten Commandments ولكن على أسس اقتصادية وسياسية معقدة ، فان الارهاق سيؤدى الى التشاؤم بالنسبة للمناقشات المتصلة بها ، وسوف يصبح الكثير من الناس ببساطة ، اما غير مباليين ، أو يعتنقون نظرية ما غير صادقة ، توحى بأنه يوجد طريق أقصر للرخاء • ويمكن تنشيط الناس بالأمل أو دفعهم بالخوف • ولكن الأمل والخوف يجب أن يكونا قويين وفوريين اذا شئنا أن يكونا مؤثرين دون أن يسببا ارهاقا •

وقد يكون هذا سببا جزئيا لكون الدعاية الهستيرية ، أو على الأقل الدعاية المقصود بها اثاره الهستيريا - لها كل هذا التأثير المنتشر على نطاق واسع فى العالم الحديث • فالناس يعلمون - بطريقة عامة - أن حياتهم اليومية تتأثر بالأحداث التى تجرى فى قطاعات بعيدة من العالم ، ولكنهم ليسوا ملمين بالمعرفة اللازمة لفهم كيفية حدوث ذلك ، اللهم الا فى حالات عدد محدود من الخبراء • لماذا لا يوجد أرز ؟ ولماذا يكون الموز نادرا ؟ ولماذا لم يعد - كما يبدو - للثيران ذيول (★) ؟ وإذا انحيت باللوم على الهند ، أو الشريط الأحمر ، أو الدولة الرأسمالية ، فانك تخلق (بطريقة السحر) فى عقول الناس شخصية شيطان أسطورى من السهل كرهه • وفى كل كارثة هناك حافز طبيعى للبحث عن عدو لننحى عليه باللائمة ، ويرجع الهمجيون ، كل الأمراض للسحر العدائى • وكلما كانت متاعبنا أصعب من أن نفهمها ،

فإننا نميل لارجاعها الى هذا التفسير البدائي • والجريدة التي تقدم لنا وغدا لتكرمه لها شعبية تفوق بكثير شعبية تلك التي تتعمق في تعقيدات أزمة الدولار • وعندما عانى الألمان بعد الحرب العالمية الأولى اقتنع كثير منهم أن اللوم يقع على اليهود •

والالتجاء الى كراهية عدو مزعوم كتبرير لأي حدث مؤلم في حياتنا يكون في العادة مدمرا وشؤما ، فهو يحفز النشاط الغريزي البدائي ، ولكن بطرق تكون نتائجها من نوع الكوارث •

وهناك وسائل مختلفة لتقليل الاندفاع نحو الكراهية • وأفضل وسيلة ، بوضوح كلما كان ذلك ممكنا ، هي معالجة أو ازالة المساوئ التي تجعلنا نبعث عن عدو •

وحيثما يتعذر تحقيق هذا ، قد يكون ميسورا أحيانا أن ننشر على نطاق واسع ، تفهما حقيقيا للأسباب التي تنتج عنها أنواع المعاناة • ولكن هذا يكون صعبا طالما وجدت مؤثرات قوية في السياسة وفي الصحافة ، وهي القوى التي تزدهر بتشجيع الهستيريا •

وأنا لا أرى ان المعاناة في حد ذاتها تنتج نوع الكراهية الهستيرى الذى أدى مثلا ، الى ظهور النازيين • فلا بد ان يكون هناك شعور بالكبت الى جانب المعاناة • فعائلة روبنسون السويسرية ، التي تجد الكثير من العمل على جزيرتها ، لن تضيع وقتها في الكراهية • ولكن في موقف أكثر تعقيدا ، قد تكون الأنشطة الضرورية حقا أقل فاعلية في خلق اغراء مباشر للأفراد • وفي الحالة الصعبة الحاضرة (★) للاقتصاد القومى البريطانى - نحن نعلم كمجموع ماذا نحتاج : زيادة الانتاج ، وتقليص الاستهلاك ، وتنشيط التصدير • ولكن هذه أمور ضخمة وعامة ، لا تتصل بوضوح بمصالح رجال وتساء معينين • فاذا أردنا للأنشطة اللازمة ، على مثل هذه

(★) يلاحظ تاريخ المعاضرات (٤٨ - ١٩٤٩) عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية •

الأسس البعيدة ظاهريا ، أن تؤدي بعزيمة وابتهاج ، وجب علينا ابتكار طرق لخلق سبب مباشر بدرجة فائقة لتنفيذ ما يستلزمه الاقتصاد القومي . وهذا في نظري يحتاج الى نقل محكم للسلطة الى المحليات ، وفرص متاحة لتحرك حر (كثير أو محدود) مرغوب للأفراد أو الجماعات التي ليست كبيرة جدا .

والديمقراطية ، كما توجد في الدول الكبيرة الحديثة ، لا تتيح مجالا مناسباً للسبق السياسي الا لأقلية ضئيلة . وقد اعتدنا الإشارة الى ما سماه الاغريق « ديمقراطية » على أنها كانت محددة لاستبعادها النساء والعبيد - ولكننا لا نتبين دائما ، أنها ، لبعض الاعتبارات المهمة ، كانت أكثر ديمقراطية من أى شكل متاح ، عندما يكون الاقليم الحكومي شاسعا . فقد كان (حينئذ) كل مواطن قادرا على التصويت في كل الشئون ، ولم يكن مضطرا الى اسناد سلطته الى ممثل ما . وكان يستطيع انتخاب ضباط تنفيذيين بمن فيهم القادة (الجنرالات) وكان في قدرته التوصل للحكم عليهم اذا أغضبوا اغلبية ما . وكان عدد المواطنين صغيرا بدرجة تسمح لكل شخص أن يشعر بأن له وزنا ، وأنه يملك فاعلية ملموسة في أى مناقشة مع معارفه .

ولست أوحى بأن هذا النظام كان جيدا كليا ، فقد كانت له في الواقع عيوب خطيرة جدا . ولكنه ، بالنسبة لآتاحته اسبق الفردى كان متفوقاً بدرجة كبيرة على أى نظام سائد في العالم الحديث . خذ على سبيل المثال ، العلاقة بين دافع ضرائب عادى وبين الأدميرال فدافعوا الضرائب كمجموع يستخدمون الأدميرال فموكلوهم في البرلمان يصوتون بالموافقة على أجره ، ويختارون الحكومة التي تعتمد السلطة التي تعين الأدميرال . ولكن لو قدر لدافع الضرائب الفردى أن يحاول اتخاذ موقف السلطة المعتاد من الموظف للموظف ، تجاه الأدميرال - فانه سيوضع فورا في مكانه . فالأدميرال رجل عظيم ، اعتاد فرض سلطته ، ودافع الضرائب ليس كذلك . ويصدق نفس الشيء بدرجة اقل ، في كل

الخدمات العامة • وحتى ان كنت تريد فقط تسجيل خطاب في مكتب بريد ، فان الموظف في وضع من السلطة الوقتية ، ويستطيع على الأقل أن يقرر متى يلاحظ أنك تطلب انتباهه • وإذا كنت تريد اجراء عملية أكثر تعقيدا ، فانه يستطيع ، اذا تصادف وكان مزاجه معكرا ، أن يسبب لك مضايقة ملموسة ، فيمكنه أن يرسلك لرجل آخر ، وهذا يمكنه أن يعيدك للرجل الأول ، ومع ذلك فكلاهما معتبران في «خدمة» الجمهور • والناخب العادى ، البعيد كثيرا عن رؤية نفسه مصدرا لكل سلطات الجيش والبحرية والشرطة والخدمات المدنية ، يستشعر نفسه تابعهم المتواضع ، الذى يجب عليه كما اعتاد الصينيون القول « أن يرتعد ويطيع » . وطالما بقى التحكم الديمقراطى بعيدا ونادرا ، بينما الادارة العامة مركزية ، والسلطة مسندة من المركز الى الدائرة المحيطة ، فان الشعور بالعجز الفردى أمام السلطات القائمة ، يصعب تحاشيه • ومع ذلك فمن الواجب منعه اذا قدر للديمقراطية أن تكون حقيقة فى الشعور ليس فقط فى آليات الحكومة •

وأغلب المساوئ التى انشغلنا بها فى هذه المحاضرة ليست شيئا جديدا • فمنذ فجر الحضارة عاش أغلب الناس فى مجتمعات حضارية حياة مليئة بالبؤس ، وكان المجد والمغامرة والسبق متاحا لقلّة من المميزين ، بينما كانت للجماهير حياة حافلة بالعمل الشاق المقترن بقسوة فظيعة بين آن وآخر •

ولكن الأمم الغربية أولا ، وكل العالم بالتدريج ، اهتموا الى مبدأ جديد • فنحن لم نعد نرضى بأن يستمتع قليلون ، بكل الخيرات ، بينما يعيش الكثيرون فى بؤس • وقد سببت مساوئ التصنيع هزة رعب ما كانت لتحدثها فى الأزمنة الرومانية • وقد ألغيت النخاسة لأنهم شعروا بأنه لا يصح اعتبار أى مخلوق بشرى مجرد آلة لتحقيق الرخاء للآخرين • ونحن لم نعد نحاول - على الأقل نظريا ، ان ندافع عن استغلال الأجناس الملونة لصالح الفزاة البيض • وقد أوحى بالاشتراكية الرغبة فى تقليص الهوة بين الأغنياء

والفقراء • وفى كل الاتجاهات ظهر تمرد ضد الظلم وعدم المساواة ، ورفض لإنشاء بناء فوقى متألق على أساس من المعاناة والتردى •

وقد أصبح هذا الاعتقاد الجديد مسلما به الآن بوجه عام ، لدرجة أننا لا نتبين تماما طبيعته الثورية فى تاريخ البشرية الطويل • وفى هذا المنظور ، تبدو السنوات المائة والستون الأخيرة ثورة مستمرة ، أوحى بها هذه الفكرة • وهو - ككل الاعتقادات الجديدة ذات الفاعلية - ليس مريحا ، ويستلزم تعديلات صعبة • وهناك خطورة - كما كان بالنسبة لكل الفلسفات الأخرى ، هى أن يساء فهم الوسائل فتؤخذ على أنها غايات ، وما ينتج عن ذلك من اغفال الغايات • وهناك خطورة أنه فى بحثنا عن المساواة ، قد لا يعترف الناس بأن الأشياء الجيدة التى نجد صعوبة فى توزيعها بالمساواة ، (قد لا يعترفون) بأنها جيدة •

وقد أتاحت بعض المجتمعات الظالمة فى الماضى فرصا لأقليات ، ان لم تكن حريصين ، فقد لا يعطيها المجتمع الجديد ، الذى نسمى لبنائه ، لأى أحد •

وعندما أتحدث عن مساوىء اليوم ، فانى أفعل ذلك ، لا لأوحى بأنها أعظم من مساوىء الماضى ، ولكن فقط لأؤكد من أن ما كان جيدا فى الماضى يجب نقله للمستقبل بقدر الامكان ، دون أن نسيء لمرحلة الانتقال •

ولكن اذا قدر لهذا أن يتحقق ، فهناك أمور يجب أن نتذكرها ، معرضة للنسيان فى الطبقات الزرقاء للمدن المثالية •

ومن بين أهم الأمور المهددة بأن نضحى بها ، بدون ضرورة ، للمساواة الديمقراطية احترام الذات • وأقصد باحترام الذات النصف الطيب من الكبرياء ، وهو ما يسمى « بالكرامة » والنصف السيئ هو الشعور بالتفوق • واحترام الذات من شأنه أن يساعد شخصا ما على تعايش الشعور



بالاذلال عندما يكون فى قبضة أعداء ، كما يمكنه من الشعور
بكونه على حق عندما يكون العالم كله ضده • وإذا تجرد رجل
من هذه الصفة فسوف يجد أن رأى الأغلبية ، أو رأى
الحكومى - واجب الطاعة ولا مجال لمناقشته ، ومثل هذه
الطريقة فى الشعور، اذا أصبحت عامة ، تجعل كلا من التقدم
الأخلاقى والفكرى مستحيلين •

وقد بقى الى الآن احترام الذات ، بالضرورة ، فضيلة
للأقلية • وحيثما يوجد عدم مساواة فى السلطة ، فلا يحتمل
أن يوجد (احترام الذات) بين أولئك الغاضمين لحكم
غيرهم • واحدى السمات ، الأكثر اثارة ، للدول المستبدة
هى الكيفية التى قادوا بها ضحايا الظلم الى تملق أولئك الذين
يسيئون معاملتهم • وقد حيا السيفافون الرومان الأباطرة
الذين كانوا على وشك جعل نصفهم يذبحون لأجل تسليتهم •
وتظاهر ديستوفيسكى وباكانين - أثناء سجنهم - بتقدير
للقيصر نيقولا •

والذين تجرى الحكومة السوفيتية تصفيتهم ، يعترفون
فى أغلب الأحيان بذنبهم بلهجة ذليلة ، بينما أولئك الذين
يفلتون من حملات التطهير ، يبالغون فى ممالآت مفرزة ،
وفى أحيان غير قليلة ، يحاولون ادانة زملائهم •

ويحتمل أن يتعاشى النظام الديمقراطى هذه الأشكال
الفضة من التدنى الذاتى ، ويمكنه أن يتيح فرصة كاملة
للحفاظ على الاحترام الشخصى ، ولكنه قد يفعل العكس
تماما •

ولما كان احترام الذات فى الماضى مقصورا غالبا على
القلة ذات الامتيازات ، فمن المحتمل أن تنتقص قيمته من
جانب أولئك الذين يعارضون حكومة أقلية مستقرة •
وأولئك الذين يؤمنون بأن صوت الجمهور هو صوت الله قد
يوحون بأن أى رأى غير عادى أو أى ذوق غريب يذاد يكون
ضربا من الكفر ، ويجدر اعتباره تمردا مدانا ضد السلطة
الشرعية للمجموع • ويمكن تعاشى هذا فقط اذا اعتبرت

الحرية مساوية في قيمتها للديمقراطية ، وإذا تبين أن مجتمعا فيه كل فرد عبد للمجموع هو أفضل قليلا فقط من مجتمع فيه كل فرد عبد لمستبد . وتوجد المساواة حيث يكون الكل عبيدا ، تماما مثل حيث يكون الكل أحرارا . وهذا يبين أن المساواة ذاتها ، ليست كافية لصنع مجتمع خير .

وربما يكون أهم مشكل في المجتمع الصناعي ، وهو طبعا واحد من أصعب المشاكل ، هو جعل العمل محببا ، بمعنى أن يكون أكثر من مجرد وسيلة للدخل كما كان قبلا . وينشأ هذا المشكل خاصة بالنسبة للعمل غير الماهر . ويحتمل أن يكون العمل الصعب جذابا لأولئك الذين يستطيعون أدائه . فالغاز الكلمات المتقاطعة ، والشطرنج يشبهان كثيرا بعض أنواع العمل الماهر ، ومع ذلك يبذل كثيرون فيها مجهودا كبيرا ، لمجرد المتعة .

ولكن مع ازدياد الآلات هناك ازدياد مستمر في نسبة من يكسبون قوتهم في عمل ممل كليا وسهل جدا .

ويبرز الأستاذ أبركرومبي في كتابه « خطة لندن العظمى سنة ١٩٤٤ » - بالصدفة وبدون تأكيد - أن معظم الصناعات الحديثة لا تحتاج لصلاحيات متخصصة ، وعليه فلا حاجة لإنشائها في أحياء توجد بها مهارات تقليدية . ويقول :

« مبدأ عدم الاعتماد على أى مجموعة عمل واحدة تؤكده أكثر طبيعة العمل الحديث ، الذى يتطلب مهارة أقل نسبيا ، ولكن قدرا كبيرا من الثبات والصلاحية . وهذه صفات يمكن أن توجد تقريبا فى أى مكان بين جمهور الطبقة العاملة اليوم » .

« والثبات والصلاحية » هما بالطبع صفتان مفيدتان للغاية ، ولكن إذا كانتا كل ما يتطلبه عمل الشخص منه ، فليس من المحتمل أن يجد عمله محببا ومثيرا للاهتمام . ويكاد يكون من المؤكد أن ما توفره له حياته من رضى يتحتم تحقيقه خارج ساعات العمل . وأنا لا أعتقد أنه يمكن

تحاشى هذا كليا ، حتى عندما يكون العمل فى حد ذاته مملا
وغير مشوق • وأول أمر ضرورى هو أن نعيد للعامل بعض
المشاعر المتصلة بالملكية فى الماضى • فالملكية الفعلية لفرد
عامل لا تتاح عندما تتدخل الآلات فى الأمر ، ولكن يمكن
إتاحة طرق للحفاظ على الكبرياء المرتبطة بالشعور بأن هذا
هو عملى أنا - أو على أية حال - عملنا ، حيث تشير (نا)
الى مجموعة صغيرة بدرجة تسمح لأن يعرف كل منا الآخر ،
وأن يكون هناك شعور فعال بالتكامل • وهذا لا يتحقق
بالتأميم ، الذى يترك المديرين والموظفين على بعد من العمل
مماثل تقريبا للبعد الذى كانوا عليه تحت النظام الرأسمالى •
والذى نفتقر اليه هو ديمقراطية محلية على نطاق ضيق ،
فى كل الشئون الداخلية ، فالمديرون والرؤساء يجب أن
ينتخبهم أولئك الذين ستكون لهم سلطة عليهم •

والطبيعة المجردة والنائية لمن يملكون السلطة على
العمليات الصناعية تقضى على أى اهتمام تملكى لدى الموظف
العادى •

ويقدم مستر بيرنهام فى « ثورة الادارة » صورة أبعد
ما تكون من البهيجة ، عن الامكانيات فى المستقبل القريب •
واذا أردنا أن نجنب العالم الكآبة التى يتنبأ بها ، فأهم شئ
هو أن نجعل الادارة ديمقراطية • ويعالج هذا الموضوع
بدرجة رائعة فى كتاب السيد جيمس جيللسبى « التعبير الحر
فى الصناعة » ولبس أفضل من أن أقتبس منه - فهو يقول :
ينشأ شعور بالكبت عندما يواجه فرد أو مجموعة مشكلا
خطيرا ، ولا يستطيع التغلب عليه • فالحال فى البيروقراطية
المدنية مثلها فى البيروقراطية الصناعية ، اذ توجد نفس
التعطيلات ، والإشارة الى x أو y ، وتقرير القواعد ، ونفس
الشعور بالعجز والكبت • « لو تمكنت فقط من الوصول
لرئيس لاستطاع أن يعرف وأن يفهم • • » وهذه الرغبة فى
الوصول الى الرئاسة حقيقية جدا ومهمة جدا • والاجتماع
الشهرى لمثل مجموعات الموظفين ليس عديم القيمة ، ولكنه

ليس بديلا فعلا لصله المواجهة بين المالك والموظف . ولا يجدى فى هذا الموقف ذهاب صبي المحل أو الفنى بمشاكلته الى الرئيس - والرئيس بدوره ، المجرد من السلطة بسبب نقل الاشراف ، لا يستطيع عمل شئ الا أن يحيلها الى المشرف ، ويحيلها هذا بدوره الى مدير المصنع ، الذى يضعها فى جدول أعمال الاجتماع القادم . وربما تحال المسألة الى قسم المصالح ، وهو قسم كبير فى شركة كبيرة ، وهو بديل لمدير المصالح أو مدير المستخدمين ، وهو ذاته بديل لأحد أدوار مدير الادارة أو المالك المدير ، ليعالجها أو يحيلها لآخر .

» وفى الشركة الكبيرة أكثر من شعور بالكبت - اذ تبدو عملياتها غير ذات معنى بدرجة عجيبة فى نظر العضو . فهو يعرف القليل عن مغزى عمله فى الشركة ككل - وهو لا يعرف من هو الرئيس الفعلى ، وفى أحيان عديدة لا يعرف من هو المدير العام ، وفى حالات كثيرة لم يحدث أن تكلم بالمرّة مع المدير الرئيسى للمصانع . ومدير المبيعات ومدير الانفاق ومدير التخطيط والمدير الرئيسى للمصالح ، وكثيرون آخرون ، هم مجرد أشخاص بوظائف جيدة وساعات عمل قليلة ، وليس له دور معه ولا ينتمون لمجموعته » .

والديمقراطية سواء فى السياسة أو فى الصناعة ، ليست حقيقة سيكولوجية طالما بقيت الحكومة أو الادارة يشار اليها بضمير الغائب ، كهيئة بعيدة تعيش بطريقتها المتعالية ، ومن الطبيعى أن ينظر اليها بكراهية - كراهية عاجزة الا اذا اتخذت شكل التمرد . وفى الصناعة ، كما يوضح مستر جيلسبى ، تم عمل القليل جدا فى هذا الاتجاه ، وبقيت الادارة ، باستثناءات نادرة ، ملكية monarchical أو أقلية Oligarchic صريحة ، وهذا شر ،

ان ترك بدون كبح يميل للتفاقم مع كل زيادة فى حجم المؤسسات .

ومنذ بدء التاريخ ، عاشت أغلبية البشر تحت عبء الفقر والمعاناة والقسوة ، واستشعروا عجزهم تحت نير

سلطات عدائية أو لا شخصية باردة • ولم تعد هذه المساوىء
ضرورية لبقاء الحضارة - ويمكن ازالتها بمساعدة العلم
الحديث والوسائل المتقدمة ، اذا افترضنا أنها ستستعمل
بروح انسانية ، وبإدراك لمصادر الحياة والسعادة • وبدون
إدراك كهذا ، قد نخلق ، بدون قصد ، سجنًا جديدًا ، قد يكون
عادلاً ، فلن يكون خارجة أحد ، ولكنه موحش وخال من
المتعة ، وميت روحياً •

وكيف يمكن تحاشي مثل هذه الكارثة ؟ هذا هو ما
سأعالجه في المحاضرتين الأخيرتين •

ملحوظة : بعد المحاضرة •

ان مثلاً مثيراً ومؤلماً لتردى النوعية بسبب الوسائل
الآلية الحديثة تقدمه صناعة التويد Tweed الاسكتلندية •
فأقمشة التويد (★) Tweed المنسوجة يدوياً ، والمعترف
بجودتها الفائقة عالمياً - كانت تنتج منذ زمن بعيد في
أقاليم (هايلاندز) و (هيريدز) و (الأوركني) و (جزر
شتلاند) • ولكن منافسة أصواف التويد المنسوجة آلياً قد
أصابته النساجين اليدويين بضربة قاصمة ، وضريبة
المبيعات - طبقاً للمناقشات في مجلس البرلمان ، تضيف
الضريبة القاضية •

والنتيجة العتمية هي أن أولئك الذين يستطيعون بعد
ذلك أن يكسبوا عيشهم بممارسة حرفتهم ، يضطرون لترك
الجزر و (الهايلاندز) ليعيشوا في المدن أو يهاجروا •

وفي مقابل كسب اقتصادي ، على المدى القصير ،
من ضريبة المبيعات التي تحقق من مليون إلى مليون ونصف
جنيه سنوياً ، يجب وضع الخسائر على المدى الطويل وهي
خسائر يصعب احصاؤها •

فأولاً هناك بالإضافة إلى الخسائر التي تحملناها قبلاً

(★) ضرب ثقيل كان ينسج يدوياً •

فى الذروة العمياء والجشعة للانقلاب الصناعى ، خسارة لمهارة أخرى محلية وتقليدية ، كانت رغم صمودتها تحقق لأولئك الذين يمارسونها متعة العمل اليدوى ، ووسيلة لكسب العيش واحتراما ذاتيا واستمتعا بالانجاز ، عن طريق الابداع والجهد ، فى ظروف صعبة وخطيرة .

وثانيا : هناك الانتقاص من الجودة الذاتية للمنتج ، جماليا وتقنيا فى وقت واحد .

وثالثا : يزيد هذا الاغتيال لصناعة محلية ، خطورة الاتجاه الى نمو المدن غير المحكم ، وهو الذى نحاول تعاشيه فى تخطيطنا القومى للمدن . فالنساجون المستقلون يتحولون الى وحدات فى تل نعل بشرى شاسع وكريه وغير صحى - ولا يعتمد أمنهم الاقتصادى بعد ذلك على مهارتهم الذاتية ولا على قوى الطبيعة - بل انه يضيع فى مؤسسات ضخمة ومحدودة العدد ، اذا فشلت فيها واحدة فشل الكل ولا يمكن ادراك أسباب الفشل .

ويتسبب فى هذه العملية عاملان : وهى نموذج مصغر للانقلاب الصناعى ، ولا يمكن التماس العذر لها فى هذا الوقت . فمن جهة نحن نعلم جيدا المساوئ المترتبة ، بخلاف الصناعيين الأوائل ، الذين لم يكن فى وسعهم رؤية عواقب أعمالهم . ومن جهة أخرى لم تعد هذه المساوئ الآن ضرورية لزيادة الانتاج ، ولا لرفع مستويات حياة العامل المادية ، فقد جعلت الكهرباء والنقل بالسيارات الوحدات الصناعية الصغيرة ، ليست فقط متاحة اقتصاديا ، بل أيضا مرغوبا فيها لأنها تتجنب الانفاق الضخم على النقل والتنظيم . واذا بقيت احدى الصناعات الريفية مزدهرة فانه يجدر ميكنتها تدريجيا - مع تركها فى مكانها وكوحدات صغيرة .

وفى تلك الأجزاء من العالم حيث مازال التصنيع حديثا - توجد امكانية تعاشى الأهوال التى عانىناها . فالهند مثلا ،

وهى تقليديا بلاد مجتمعات ريفية - سيكون مأساويا اذا قدر لطريقة الحياة التقليدية ، مع كل مساوئها ، أن تستبدل فجأة وبعنف ، بمساوئ التصنيع الأكبر بالمدن ، ذلك لأنها ستطبق على أناس مستواهم المعيشى منخفض بدرجة يرثى لها . وعندما أدرك غاندى هذه المخاطر ، حاول تأخير الساعة باحياء النسيج بالنول اليدوى فى أنحاء البلاد ، وكان نصف محق . ولكن من الغباء أن نرفض المزايا التى يتيحها العلم لنا ، بل يجب أن نتشبت بها وأن نطبقها لتزيد الثروة المادية ، وفى نفس الوقت - نحافظ على تلك الامتيازات البسيطة من الهواء النقى والمركز الاجتماعى فى مجتمع صغير ، والزهو بالمسؤولية ، والعمل جيد الأداء ، وكلها يندر توفرها للعامل فى مدينة صناعية كبرى . ويمكن لأنهار الهمالايا أن تزود بكل الطاقة الهيدروكهربية اللازمة للميكنة التدريجية للصناعات الريفية بالهند ، ولتحسينات للصحة البدنية لا حدود لها - مع تحاشى الكارثة فى الصناعة أو الخسارة الأعمق والتدهور الذى ينتج عندما تنتهك التقاليد العريقة بضراوة .

التحكم والسبق ومجالات كل منهما

ان مجتمعا صحيحا وتقدميا يتطلب كلا من التحكم المركزي والسبق الفردى والجماعى : فبدون التحكم توجد الفوضى ، وبدون السبق يسود الركود . وأنا أريد أن أصل فى هذه المحاضرة الى بعض المبادئ العامة فيما يختص بالاجابة على السؤال : أى الشئون يلزم التحكم فيها ، وأيها يجب تركه للسبق الخاص ونصف الخاص ؟ وبعض الخواص التى نود تواجدها فى مجتمع ما هى فى جوهرها ثابتة - بينما خواص أخرى تكون بطبيعتها الذاتية متغيرة . وعندما نتحدث بدون تحديد ، فإننا قد نتوقع من الخواص الثابتة أن تكون مناسبة للتحكم الحكومى ، بينما الخواص المتغيرة يجب تعزيزها بسبق الافراد والجماعات . ولكن اذا قدر لهذا السبق أن يتاح ، وأن يكون مثمرا بدلا من مدمر ، فسيحتاج للتعزيز بتشريعات ملائمة ، وستقع مسئولية رعاية هذه التشريعات على عاتق الحكومة . وواضح أنه فى الدولة الفوضوية لا يمكن أن تقوم جامعات ، أو بحوث علمية ، أو نشر للكتب ، ولا حتى الأمور البسيطة مثل عطلات الشاطئ .

وفى عالمنا المعقد ، لا يمكن أن ينشأ سبق مثمر بدون حكومة ، ولكن لسوء الحظ لا يمكن أن تقوم حكومة بدون سبق .

والأهداف الأولى للحكومة - كما اقترح - يجب أن تكون ثلاثة : الأمن والعدالة والصيانة . وهناك أمور فى منتهى الأهمية بالنسبة للسعادة البشرية ، وهى أمور تستطيع الحكومة وحدها تهيتها . وفى الوقت نفسه ليس أى واحد منا مطلقا ، وكل منا يمكن ، فى بعض الظروف ، أن يضحى بها

يقدر ما ، لأجل تحقيق درجة أكبر من الخير لآخر . وسأذكر شيئاً ما عن كل منها بالترتيب .

فالأمن بمعنى حماية الحياة والملكية - كان وما يزال دائماً معروفاً كواحد من الأغراض الأولى للدولة . ومع ذلك فكثير من الدول - بينما تحافظ على سلامة المواطنين المنزمنين بالقانون ، ضد باقى المواطنين ، فانها لا تعتبر من الضرورى حمايتهم من الدولة . فحيثما يوجد اعتقال من جانب النظام الادارى ، وعقوبة دون أن يأخذ القانون مجراه ، فان الأشخاص الخاصين (غير العاميين) لا يتمتعون بالأمن ، مهما كان نظام انشاء الدولة محكماً . وحتى التمسك بأن يأخذ القانون مجراه غير كاف ، الا اذا كان القضاء مستقلاً عن السلطة التنفيذية . وهذا النظام فى التصدير دان فى المقدمة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر تحت شعار « حرية الشعب » أو « حقوق الانسان » . ولكن « الحرية » و « الحقوق » التى كانت مطلوبة كان يمكن تأمينها فقط من جانب الدولة ، وفقط فى حالة ما اذا كانت الدولة من النوع المسمى « تقدمى » . ولم تؤمن هذه « الحرية » ولا هذه « الحقوق » الا فى بلاد الغرب .

وبالنسبة لسكان البلاد الغربية فى الوقت الحاضر ، يكون الأمن ضد هجمات الدول المعادية نوعاً من الأمن الأكبر أهمية وهو أكثر أهمية لأنه لم يؤمن بعد ، ولأنه يزداد أهميه سنة بعد أخرى ، كلما تطورت طرق الحرب . ويكون هذا النوع من الأمن متاحاً عندما تتواجد حكومة عالمية واحدة تحتكر كل أسلحة الحرب الرئيسية . ولن أسهب فى هذا الموضوع ، مادام بعيداً عن موضوعى بعض الشيء (★) . وسأقرر فقط ، بكل التأكيد الممكن ، أنه ما لم ، والى أن ، تحقق البشرية أمن حكومة واحدة للعالم ، فان كل شيء ذا قيمة عدا ذلك ، بصرف النظر عن نوعيته ، يكون غير مستقر ، ويمكن فى أى لحظة أن يدمر بفعل الحرب .

(★) يلاحظ أن هذا الموضوع لم يعد بعيداً فى وقتنا الحاضر (١٩٩٢) . (المترجمة)

والأمن الاقتصادي ، كان وما يزال واحدا من أهم أهداف التشريع البريطاني ، فالتأمين ضد البطالة ، والمرض ، والعوز في سن متقدمة ، قد أزال من حياة العاملين لكسب قوتهم ، قدرا كبيرا من القلق المضني بالنسبة لمستقبلهم . وقد تم التوسع في التأمين الصحي بإجراءات زادت متوسط العمر بدرجة كبيرة ، وقللت من عدد حالات المرض . وبدون الحرب غدت الحياة في بلاد الغرب ، بدرجة كلية ، أقل خطرا كثيرا جدا عما كانت عليه في القرن الثامن عشر . ويرجع هذا التغيير أساسا الى أنواع مختلفة من الرقابة الحكومية .

والأمن ، بالرغم من أنه أمر طيب بدون شك ، قد يطلب بدرجة مبالغ فيها حتى يصبح بدعة . والحياة الآمنة ليست بالضرورة حياة سعيدة . وقد تغدو كئيبة بسبب الملل والرتابة . وكثير من الناس ، وخاصة أثناء شبابهم ، يرحبون بقدر من المغامرة الخطرة ، وقد يجدون تنفيسا حتى في حرب ما ، كهروب من السلامة المملة . والأمن في حد ذاته هدف سلبي يوحى به الخوف . والحياة لتكون مرضية يجب أن يكون لها هدف ايجابي يوحى به الأمل . وهذا النوع من الأمل المغامر يرتبط بالمخاطرة (وبناء عليه) بالخوف . ولكن الخوف الذي نختاره عمدا ليس مثل الخوف الذي تفرضه ظروف خارجية على شخص ما . ولذلك لا نستطيع أن نقنع بالأمن فقط ، ولا أن نتصور أنه يمكن أن يهيء العصر الأمثل

وأما بالنسبة للعدالة : فهذه وخاصة العدالة الاقتصادية قد أصبحت هدفا حكوميا في الآونة الأخيرة . وقد أصبحت كلمة العدالة تترجم على أنها المساواة ، الا حيثما يعد التفوق الاستثنائي جديرا بجزاء استثنائي ولكن معقول . والعدالة السياسية - أي الديمقراطية ، كانت ومازالت مستهدفة منذ الثورتين الأمريكية والفرنسية . ولكن العدالة الاقتصادية هدف أحدث ، وتحتاج لقدر أعظم بكثير من الرقابة الحكومية . ويعدها الاشتراكيون بحق - في

اعتقادي - مرتبطة بملكية الدولة للصناعات الرئيسية ،
وبقدر وفير من تنظيم التجارة الخارجية •

وقد يحاجي مناهضو الاشتراكية بأن العدالة الاقتصادية
يمكن أن تكلف ثمنا باهظا • ولكن لا يمكن لأحد أن ينكر أنه
إذا قدر لها أن تتحقق ، فإن قدرا كبيرا جدا من تحكم الدولة
في الصناعة والاقتصاد يصير جوهريا •

وهناك ، على أية حال ، حدود للعدالة الاقتصادية ،
يعترف بها على الأقل ضمنا ، حتى من أكثر مؤيديها الغربيين
تحمسا •

فمثلا من الأهمية القصوى البحث عن طرق التوصل الى
المساواة الاقتصادية بتحسين وضع أجزاء العالم الأقل حظا ،
ليس فقط لأن هناك كما ضخما من التعاسة سوف يزول ،
ولكن أيضا لأن العالم لا يستطيع أن يكون مستقرا أو آمنا
من الحروب الكبرى ، بينما تستمر ضروب عدم المساواة
الصارخة • ولكن محاولة لتحقيق المساواة بين الأمم الغربية
وجنوب شرق آسيا بأي وسائل غير تدريجية ، من شأنها أن
تجر الأمم الأكثر رخاءا الى مستوى الدول الأقل رخاءا ، بدون
أي ميزة تذكر للدول الأخيرة •

والعدالة ، مثل الأمن ، ولكنها ، حتى بدرجة أكبر ،
مبدأ يخضع لتحديدات • وهناك عدالة حيما يكون الكل
فقراء بالتساوي ، وحيثما يكون الكل أغنياء بالتساوي ،
ولكنه يمكن أن يبدو من غير المجدي أن تجعل الأغنياء أفقر
ان لم يكن من شأن هذا أن يجعل الأغنياء أكثر ثراء •

والقضية ضد العدالة تزداد قوة اذا كانت في سعيها نحو
تحقيق المساواة سوف تجعل حتى الفقراء أكثر فقرا من
ذي قبل • وهذا يمكن أن يحدث فعلا اذا ارتبط بتدهور عام
في التعليم ، وتقليص في البحث المثمر • واذا لم يكن قد
حدث غبن اقتصادي في مصر وبابيلون ، لفدا اختراع فن
الكتابة مستحيلا •

وليسبت هناك على أية حال ، ضرورة - مع طرق الانتاج
الجديدة ، للإبقاء على الفبن الاقتصادى فى الأمم المتطورة
صناعيا فى سبيل تعزيز التقدم فى فنون الحضارة • بل هناك
فقط خطر يجدر بنا أخذه فى الاعتبار ، ولكنه ليس ، كما
كان فى الماضى ، استحالة تقنية •

وأصل الآن الى عنوانى الثالث : وهو الصيانة •

والصيانة مثل الأمن والعدالة ، تتطلب تحركا من جهة
الدولة • وأقصد بالصيانة ، ليس فقط الحفاظ على الآثار
العتيقة ومراكز الجماليات ، وصيانة الطرق والخدمات
العامة ، وهلم جرا • • فهذه الأعمال تجرى حاليا ، باستثناء
فترات الحرب • والأمر الرئيسى الذى أفكر فيه هو الحفاظ
على مصادر الثروة الطبيعية فى العالم • وهذه مسألة بالغة
الأهمية ولا يعيرها المسئولون الا اهتماما طفيفا • وفى أثناء
المائة والخمسين عاما الماضية (١٨٠٠ - ١٩٥٠) استهلك
البشر المواد الخام للصناعة والتربة التى تعتمد عليها
الزراعة ، وهذا التبذير فى رأس المال الطبيعى مستمر
بدرجة متزايدة وسريعة • وبالنسبة للصناعة ، فان البترول
هو أكثر الأمثلة وضوحا • وكمية البترول الممكن استخراجها
فى العالم غير معروفة ، ولكنها بالطبع ليست لا نهائية • وقد
وصلت الحاجة اليها بالفعل الآن الى الدرجة التى يوجد فيها
خطر مساهمتها فى قيام حرب عالمية ثالثة • (★) وعندما
يصبح الحصول على البترول بكميات كبيرة غير متيسر ، سوف
يتعين علينا تغيير طريقة حياتنا بقدر كبير • واذا حاولنا
الاستعاضة عنه بالطاقة الذرية ، فسوف يترتب على ذلك فقط
استهلاك الامدادات المتاحة من اليورانيوم والثوريوم •

والصناعة ، كما هى الآن ، تعتمد أساسيا على استهلاك
رأس المال الطبيعى ، ولا يمكنها أن تصمد طويلا بطريقتها
المبذرة الحالية •

والأهم حتى من ذلك ، بناء على بعض المصادر المسئولة ،

(★) يلاحظ صدق هذه الرؤية لقد تحققت فى حرب الخليج الثانية سنة ١٩٩٠-٩١ •

(المترجمة)

هو الموقف بالنسبة للزراعة ، كما أظهر بوضوح عظيم كتاب الطريق الى البقاء يومه السيد فوجت • فباستثناء أقاليم ذات حظوة (ومن بينها غرب أوروبا) فان طرق فلاحه التربة السائدة تستنزف خصوبتها بسرعة • ونمو فلاحه Dust Bowl في أمريكا هو أحسن مثال معروف لعملية تدميرية تجرى في أغلب انحاء العالم • فمع ازدياد السكان في تلك الاثناء ، يصبح حدوث أزمة غذائية حتميا في خلال الخمسين سنة المقبلة ، الا اذا اتخذت اجراءات قاسية • والاجراءات اللازمة معلومة لدارسى الزراعة ، ولكن الحكومات فقط هي التي تستطيع اتخاذها ، وهذا فقط عندما تكون مستعدة لمواجهة زوال شعبيتها وقادرة على ذلك • وهذا مشكل لم نوله بعد الا أقل اهتمام • وتتعمم مواجهته على كل من يؤمل في عالم مستقر بدون حروب مهلكة حروب اذا قدر لها أن تخفف أزمة الغذاء ، فلا بد وأن تكون أكثر تدميرا من تلك التي عانينا منها فعلا • ذلك أنه أثناء كل من الحربين العالميتين (الأولى والثانية) ازداد عدد سكان العالم • وهذا الموضوع الخاص بالاصلاح في الزراعة قد يكون أهم ما يتعين على الحكومة مواجهته في المستقبل ، باستثناء موضوع منع الحرب •

وقد تحدثت عن الأمن والعدالة والصيانة أو الحفاظ ، كأكثر وظائف الحكومة أهمية - لأن هذه هي شئون تستطيع الحكومات وحدها تحقيقها • وأنا لم أقصد الايحاء بالألا تكون للحكومات وظائف أخرى • ولكن وظائفها في المجالات الأخرى يجب ، في المقام الأول ، أن تشجع السبق غير الحكومي ، وأن تخلق الفرص لممارسته بطرق خيرة •

وهناك أشكال فوضوية واجرامية للسبق ، لا يمكن لمجتمع متحضر أن يتحملها • وهناك أشكال أخرى للسبق مثل سبق المخترع المعترف به ، وهو الذي يعترف الجميع بفائدته • ولكن هناك طبقة كبيرة وسيطة من المجددين ، لا يمكن التنبؤ بمقدما بما اذا كانت نتائج أنشطتهم سوف تكون جيدة أم سيئة • ويجب بالذات ، بالنسبة لهذه الطبقة العث على أن

حرية التجربة مرغوب فيها ، لأن هذه الطبقة تشمل كل ما كان وما زال يشكل الأجود فى تاريخ الانجاز البشرى .

وتوحيد النمط ، وهو النتيجة الطبيعية لتحكم الدولة ، مستحب فى بعض الأمور ، وغير مستحب فى أمور أخرى .
ففى فلورنسا فى عهد ما قبل موسولينى ، كانت هناك قاعدة للمرور فى المدينة ، وأخرى مضادة فى البلاد المحيطة . وكان هذا النوع من الاختلاف مزعجا ، ولكن كانت هناك شئون كثيرة كبئت فيها الفاشية نوعا مرغوبا فيه من التنوع .

وفى شئون الرأى تكون ظاهرة طيبة أن يقوم نقاش نشط بين مدارس الفكر المختلفة . وفى عالم الفكر هناك الكثير لمناصرة صراع من أجل البقاء ، يؤدى ، بحسن الطالع ، الى ابقاء للأصلح . ولكن ، اذا قدر أن يقوم تنافس فدى فيجب أن تكون هناك طرق لتحديد الوسائل التى تستخدم . ولا يجوز اتخاذ القرار بواسطة الحرب ، ولا بالاغتيال ولا بالسجن لأولئك الذين يعتنقون آراء معينة ، ولا بمنع أولئك الذين يؤمنون بوجهات نظر ، غير محببة ، من كسب قوتهم .

وحيث تعم مشروعات القطاع الخاص ، أو حيثما توجد دويلات كثيرة ، مثل ايطاليا النهضة وألمانيا القرن الدامن عشر ، تتحقق هذه الظروف الى حد ما عن طريق التنافس بين مختلف المناصرين المحتمل وجودهم . ولكن ، عندما تصبح الدول - كما كان الاتجاه فى كل أوروبا - كبيرة ، والسررات الخاصة صغيرة ، تفشل الوسائل التقليدية فى الحفاظ على التنوع الفكرى . والوسيلة الوحيدة التى تبقى متاحة هى أن تمسك الدولة بالعجلة ، وتنشئ نوعا ما من قواعد كوينزبرى ، تدار على أساسها السباق .

والفنانون والكتاب فى يومنا هذا ، هم تقريبا الأشخاص الوحيدون الذين يمكنهم ، ان حالفهم الحظ ، أن يمارسوا سبقا قويا ومهما كأفراد ، وليس بعلاقتهم بمجموعة ما .

وأثناء اقامتى بكاليفورنيا كان هناك رجلان بدأ يعملان ليطلعا العالم على ظروف العمالة المهاجرة فى هذه الدولة . وكان أحدهما روائيا عالجا الموضوع فى رواية ، أما الثانى ، الذى كان مدرسا فى جامعة حكومية ، فقد عالجها فى جزء متأن من البحث الأكاديمى . وحقق الروائى ثروة ، أما المدرس فقد فصل من وظيفته ، وعانى من خطر محقق من الافلاس .

ولكن سبق الكاتب ، بالرغم من أنه مازال قائما ، فهو مهدد بطرق متنوعة - فإذا كان انتاج الكتب فى يد الدولة ، كما هى الحال فى روسيا (★) فتستطيع الدولة أن تقرر ما سوف ينشر ، وهناك احتمال ألا تظهر كتب الا تلك التى تكون موضع رضى كبار السياسيين ، ما لم توكل الدولة صلاحيتها الى سلطة غير متحيزة بالمرّة . وينطبق نفس الشئ بالطبع على الصحف . وفى هذا المجال ، قد تصبح النمطية كارتة ، ولكنها تكون نتيجة محتملة لاشتراكية الدولة غير المقيدة .

ورجال العلوم ، (كما أوضحت قبلا فى محاضرتى الثالثة) كانوا فى الماضى يستطيعون العمل فى عزلة ، وهو مازال الكتاب قادرين عليه . فكافنديش (٢٦) وفبرايدى (٢٧) ومندل (٢٨) لم يعتمدوا تقريبا على مؤسسات ، واعتمد داروين فقط بقدر ما ساعدته الحكومة ، على المشاركة فى رحلة « البيجل » (٢٩) ولكن هذه العزلة شئ يتعلق بالماضى . فأغلب البحوث تتطلب أجهزة باهظة الثمن ، وبعض الأنواع يتطلب تمويل بعثات الى مناطق صعبة . وبدون تسهيلات تهيئها الحكومة أو الجامعة يستطيع القليلون جدا تحقيق الكثير من العلم الحديث . والشروط التى تقرر من الذين يستحقون الحصول على مثل هذه التسهيلات ، لها لهذا السبب أهمية عظيمة . فإذا كان المستوفون للشروط فقط أولئك التقليديين الموالين فى الجدل الجارى ، فان التقدم العلمى

(★) يلاحظ أن تاريخ المعاصرة شاق لانهار الاتحاد السوفيتى المأسود منا .
(المترجمة)

سوف يتوقف عاجلا ، وسوف يترك المجال لسيادة هيئة تعليمية مثل تلك التي أخدمت جذوة العلوم خلال العصور الوسطى .

وارتباط السبق الشخصي بمجموعة ما فى السياسة ، واضح وجوهري . وفى العادة يكون هناك اندماج بين مجموعتين : الحزب وجمهور الناخبين . فإذا كنت ترغب فى إجراء اصلاح ما ، فعليك أولا أن تقنع حزبك بأن يتبنى مشروع الاصلاح ، ثم تقنع جمهور الناخبين بأن ينضموا الى حزبك . وقد تستطيع بالطبع أن تتصرف مباشرة مع الحكومة ، ولكن هذا نادر فى موضوع يثير الكثير من اهتمام الجمهور . وعندما يكون هذا غير ممكن ، فإن المبادرة المطلوبة ترتبط بالكثير جدا من الوقت والجهد ، ويحتمل كثيرا أن تنتهى بالفشل ، لدرجة أن أكثر الناس يفضلون مسaire الوضع القائم باستثناء مرحلة التصويت ، مرة كل خمس سنوات ، للمرشح الذى يعد بالاصلاح .

وفى عالم بالغ التنظيم يجب قصر السبق الشخصى المرتبط بمجموعة على عدد قليل ، الا اذا كانت المجموعة صغيرة . ولو كنت عضوا فى لجنة صغيرة ، فمن المعقول أن تأمل التأثير على قراراتها . وفى السياسة القومية ، حيث تكون أنت واحدا من عشرين مليون ناخبا ، يكون تأثيرك ضئيلا ، الا اذا كنت بارزا أو تشغل مركزا استثنائيا . فلك ، وهذا حقيقى ، نصيب واحد على عشرين مليونا فى حكومة الآخرين ، ولكن لك فقط نصيب واحد على عشرين مليونا فى حكومتك أنت . ولهذا فانك تشعر بكونك محكوما أكثر من كونك حاكما . وتصير الحكومة فى خواطرك (هم) ، أو فئة نائية ، وغالبا سيئة النية ، بدلا من مجموعة من الأشخاص ، اخترتهم أنت ، بالاتفاق مع آخرين ، يشاركونك آراءك لتنفيذ رغباتك .

وشعورك الفردى بالنسبة للسياسة ، فى هذه الظروف ، ليس ذلك الشعور المقصود جلبه عن طريق الديمقراطية ،

ولكنه أقرب كثيرا مما يمكن أن يكون تحت حكم ديكتاتورية •

والشعور بالمغامرة الجريئة ، وبالمقدرة على تحقيق نتائج نستشعر أهميتها يمكن استرداده فقط اذا تيسر اسناد السلطة الى مجموعات صغيرة ، حيث لا تكون مجرد كثرة العدد سببا في ارتباك الفرد • ولا غنى هنا عن قدر ملموس من التحكم المركزى ، ولو على الأقل للأسباب التى بحثناها (فى بداية هذه المحاضرة) • ولكن ، بأقصى قدر متناسب مع هذا المطلب ، يتعين أن يكون هناك تفويض لسلطات الدولة لانواع مختلفة من الهيئات ، جغرافية وصناعية وثقافية ، تبعا لوظائفها • ويجب أن تكون سلطات هذه الهيئات كافية لجعلها مثيرة للاهتمام ، وأن تحفز الأشخاص النشطين على الشعور بالرضا فى تأثيرهم عليها • وسوف تحتاج ، اذ قدر لها أن تحقق الغرض المرجو منها ، قدرا ملموسا من الاستقلال المالى • وليس هناك ما هو أكثر تشبيها وقضاء على السبق من خطة وضعت بعناية ، واعتمدتها سلطة مركزية لا تكاد تعلم شيئا عنها ، وليس لديها أى تعاطف مع أهدافها •

ومع ذلك فهذا هو ما يحدث باستمرار فى بريطانيا تحت نظام التحكم المركزى • ونحن نحتاج لشيء أكثر مرونة وأقل جمودا اذا أردنا أن نتعاشى شلل أفضل العقول • ويجب أن تكون احدى السمات الجوهرية فى أى نظام سليم أن يوضع أكبر قدر من السلطة فى أيدي الرجال الذين يهتمون بالعمل اللازم انجازه •

وموضوع تقرير حدود لسلطات الهيئات المتنوعة سيكون بالطبع مصدرا لصعوبات كثيرة • ويجب أن يكون المبدأ العام أن تترك للهيئات الصغرى كل الوظائف التى لا تمنع الهيئات الكبرى من تحقيق غرضها • واذا قصرنا رؤيتنا فى هذه اللحظة على الهيئات الجغرافية ، فيجب أن تكون للحكومة العالمية هيمنة على مجالس الابراشيات • وظيفة الحكومة العالمية هى منع الحرب - ويجب أن تمنح فقط السلطات

اللازمة لهذا الفرض . وهذا يستلزم احتكارا للقوات المسلحة ، وسلطة لاعتماد ومراجعة المعاهدات ، وحق إصدار الأحكام فى النزاعات بين الدول . ولكن الحكومة العالمية لا يجوز لها أن تتدخل فى الشؤون الداخلية للدول الأعضاء ، إلا بالقدر الذى يكون فيه تأمين احترام المعاهدات ضروريا . وبطريقة مماثلة يجب على الحكومة القومية ترك أكبر قدر ممكن للمجالس الإقليمية ، وهذه بدورها لمجالس الأحياء والابراشيات . ولنا أن نتوقع ضياع قدر مؤقت من الكفاءة فى بعض المجالات ، ولكن إذا جعلت وظائف الهيئات الفرعية مهمة بدرجة كافية فسيشعر الأشخاص القادرون بالرضا عن عضويتهم لها ، وستعوض عاجلا الخسارة المؤقتة فى الكفاءة .

وفى الوقت الحاضر ينظر للحكومة المحلية بتعميم زائد على أنها هواية الموسرين والمتقاعدين ، ماداموا هم وحدهم الذين يملكون وقت الفراغ لها . ولأنهم غير قادرين على المشاركة ، فإن قليلا من الشبان القادرين ، رجالا ونساء ، هم الذين يهتمون كثيرا بشؤون مجتمعهم المحلي . وإذا سعينا لعلاج هذا ، فيجب أن تصبح وظائف الحكومة المحلية أعمالا يأجر لنفس الأسباب التى أدت من قبل لدفع رواتب لأعضاء المجالس النيابية .

وسواء أكانت المنظمة جغرافية أم ثقافية أم عقائدية ، فسيكون لها ظائما نوعان من العلاقات : علاقات مع أعضائها ذاتها ، وأخرى مع العالم الخارجى . وعلاقات هيئة أو منظمة مع أعضائها يجب - كقاعدة - أن تترك للقرارات الحرة لهؤلاء الأعضاء - طالما لا تنطوى على مجافاة للقانون . ورغم أن علاقات هيئة ما بأعضائها يجب أن يقررها الأعضاء ، فهناك بعض أسس يؤمل أن يراعيها الأعضاء ، إذا قدر للديمقراطية أن تكون حقيقة . ولناخذ على سبيل المثال مؤسسة استثمارية كبرى ، فقد اختص هجوم الاشتراكية على الرأسمالية ، ربما بدرجة محدودة أكثر من اللازم ،

بمسائل الدخل بدلا من مسائل السلطة . وعندما تتحول صناعة ما الى الدولة عن طريق التأمين ، فقد يحدث أن يبقى قدر من عدم المساواة في السلطة كما كان قائما أيام الرأسمالية الخاصة ، لكون التغير الوحيد هو أن من بيدهم السلطة هم الآن موظفون لا ملاك . ولا يمكن بالطبع تعايش وجود موظفين تنفيذيين في أى مؤسسة عظمى ، يملكون سلطة أكبر من الرتبة والملف ولكن من المستحب كثيرا ألا يكون عدم مساواة في السلطة كهذه أكثر من الضروري ، وأن يتحتم إتاحة أكبر قدر من السبق لكل أعضاء المؤسسة .

وكتاب السيد جون سبيدان ليويس المشاركة للجميع - تجربة عمرها أربع وثلاثون سنة في الديمقراطية الصناعية كتاب مهم جدا في هذا المجال . والذي يجعل الكتاب مهما هو أنه مبني على تجربة عملية طويلة ومتسعة لرجل يجمع بين الروح العامة والجرأة التجريبية . وقد بذل ، على الجانب المالي ، جهودا لاعطاء كل موظف شعورا بأنه يشارك بفعالية في حكومة المشروع - ولو انى أشك فيما اذا كانت أساليبه تؤدي الى التقدم ، بالقدر اللازم ، نحو الديمقراطية في الصناعة . وقد طور أيضا أسلوبا لاعطاء الوظائف المهمة لأقدر الرجال على الاستمرار في العمل اللازم . ومن الطريف أن نلاحظ أن له جسدا ضد المساواة في الحوافز ، ليس فقط على أساس أن أولئك الذين يؤدون عملا صعبا يستحقون أجرا أفضل ، ولكن على الأساس المضاد - أن الأجر الأفضل يؤدي الى عمل أفضل . ويقول :

« ان من الخطأ البالغ أن نتصور أن المقدرة والرغبة في ممارستها هما معا ما يسميه علماء الرياضة - كما اعتقد - ثوابت Constants ، وأن كل ما يتغير هو الدخل الذي قد يحصل عليه العامل في مقابل ذلك . فليس الأمر قاصرا فقط على ارادتك أن تفعل أفضل ما يمكنك ، بل ان مقدرتك الفعلية تعتمد كثيرا جدا على ما تحصل عليه من أجر . والناس لا يرتفع أجرهم فقط لأنهم قادرون ، ولكنهم أيضا قادرون لأن أجورهم مرتفعة » .

ولهذا المبدأ مجال تطبيق أوسع مما يعطيه السيد ليويس - فهو ينطبق ليس فقط على الأجر ، ولكن أيضا على الشرف والمركز . وأنا أعتقد ، فى الواقع ، أن القيمة الرئيسية لزيادة ما فى المرتب ، ترتبط بزيادة فى المركز . فالعامل العلمى الذى ينادى الجميع بأهميته ، سيحصل على نفس حافز الاعتراف به مثل ما يمكن أن يحصل عليه رجل فى مجال آخر ، من زيادة الدخل . والأمر المهم ، فى الواقع ، هو توفر الأمل ونوع معين من الزهو . وهو أمر أصبحت فيه أوروبا عاجزة تماما ، كنتيجة للحربين العالميتين .

وحرية المفامرة - بالمعنى القديم لمبدأ « دعه يعمل » لا يمكننا المناداة بها اليوم ، ولكن من الأهمية البالغة أن تبقى حتى الآن حرية السبق ، وأن يجد الرجال القادرون مجالا لقدراتهم .

وهذا ، على أية حال ، جانب واحد فقط مما يستعجب فى مؤسسة كبرى . والجانب الآخر المهم ، هو ألا تتاح لأولئك الذين فى يدهم الحكم سلطة مطلقة أكثر من اللازم على الآخرين . ولقد حارب المصلحون لقرون عديدة ضد سلطة الملوك ، وبعد ذلك بدءوا يعملون لمحاربة سلطة الرأسماليين . وسيكون انتصارهم فى هذا الصراع الثانى غير مثمر اذا نتج عنه مجرد احلال سلطة الموظفين محل سلطة الرأسماليين . وهناك بالطبع صعوبات عملية ، لأن الموظفين يجب غالبا أن يتخذوا قرارات دون انتظار النتائج البطيئة لعملية ديمقراطية ولكن يجب دائما أن تتوفر امكانيات - من جهة - لتقرير الخطوط العامة للسياسة ديمقراطيا ، ومن جهة أخرى - لنقد تصرفات الموظفين دون خوف من العقاب لهذا العمل . ولما كان طبيعيا بالنسبة للرجال النشطين أن يعشقوا السلطة ، فيمكن افتراض أن الموظفين ، فى الغالبية العظمى من الحالات ، س يرغبون فى الحصول على سلطة أكثر مما يملكون . ولهذا يوجد فى كل مؤسسة عظمى نفس الحاجة الى اليقظة الديمقراطية كما يوجد فى المجال السياسى .

وعلاقات مؤسسة ما بالعالم الخارجى موضوع مختلف ، ولا يجوز تقريرها على أساس السلطة فقط ، واقصد ، على قدرة المؤسسة المشار اليها على المساومة ، بل تجدر احوالها الى سلطة محايدة كلما تعذر حلها بالمفاوضات الودية . ولا يجوز أن يكون هناك استثناء من هذا المبدأ ، الى أن نصل الى العالم ككل ، الذى ليست له حتى الآن - علاقات سياسية خارجية واذا فرضنا امكانية قيام حرب « ولزية » . للعالمين فسوف نكون فى حاجة الى سلطة وسيطة بين الكواكب .

والاختلافات بين الدول ، طالما لا تؤدى الى عداء ، لا يجوز أن تكون مشار أسف على الاطلاق . وحياتنا لبعض الوقت واقامتنا لبعض الوقت فى بلد اجنبى تحيطنا بوجود مزايا نفتقر اليها فى بلادنا ويصدق هذا على أى مكان (يمكن أن يكون بلدنا نحن) . وينطبق نفس الشيء على الفروق بين مناطق مختلفة فى نطاق بلد واحد ، وعلى الأشكال المختلفة الناتجة عن مهن مختلفة . والنمطية فى الاخلاق وفى اتصاف تدعو للأسف . ولقد اعتمد التطور البيولوجى على اختلافات موروثية بين الأفراد أو القبائل ، ويعتمد التطور الثقافى على اختلافات مكتسبة . وعندما تختفى هذه - لا يبقى لدينا أية مادة للانتقاء . ويوجد فى العالم الحديث خطر حقيقى من التشابه الكبير البالغ بين منطقة وأخرى فى الاعتبار الثقافية . ومن أفضل الطرق لتقليص هذا الضرر الزيادة فى الحكم الذاتى للمجموعات المختلفة .

ويمكن تقرير المبدأ العام ، الذى - ان كنت على حق - يجب أن يحكم مجالات السلطة والسبق ، كل على حدة ، بخطوط عريضة ، بناء على أنواع الدوافع المختلفة التى تؤسس الطبيعة البشرية . فمن احدى النواحي ، لدينا دوافع للاحتفاظ بما نملك (وفى أغلب الأحيان) أن نكتسب ما يملكه الآخرون . ومن ناحية أخرى لدينا حوافز خلاقية ، دوافع لندخل فى العالم شيئاً ما لا ننتزعه من أى شخص آخر - ويمكن لهذه الدوافع أن تتخذ أشكالاً متواضعة مثل حدائق الأكواخ - ويمكن أن تمثل قمة فى الانجاز البشرى

كما هو الحال عند شيكسبير ونيوتون • وإذا تحدثنا بدون تحديد ، فان تنظيم دوافع التملك والتحكم فيها بالفانون ، ينتميان للوظائف الأساسية للحكومة ، بينما دوافع الابداع - رغم أن الحكومة قد تشجعها - فانها يجب أن تستمد تأثيرها الرئيسى من الحكم الذاتى للفرد أو المجموعة •

والسلع المادية مسألة تملك أكثر من السلع الفكرية • فالرجل الذى يأكل قطعة من الطعام يحرم كل الآخرين من أكلها ، ولكن الرجل الذى يكتب أو يستمتع بقصيدة لا يحرم رجلا آخر من كتابة واحدة مثلها تماما أو افضل منها ، أو الاستمتاع بها • ولهذا السبب تكون العدالة مهمة بالنسبة للسلع المادية • ولكن بالنسبة للسلع الفكرية فيلزم إتاحة فرص لجعل الأمل فى الانجاز يبدو معقولا • وليست المكافآت المادية السخية هى التى تستحث الرجال القادرين على الأعمال الابداعية ، فقليل جدا من الشعراء أو رجال العلم كونوا ثروات أو سموا لفعل ذلك • وقد اعدم سقراط بأمر السلطات ، ولكنه بقى رابط الجأش فى لحظاته الأخيرة ، لأنه كان قد أنجز عمله • ولو كان قد غمر بمظاهر التكريم ولكن منع من انجاز عمله ، لشعر بأنه قد عانى من عقوبة أشد قسوة • وفى دولة مونوليثية حيث تتحكم السلطة فى كل وسائل الاعلام - يحتمل أن يعانى شخص ذو أصالة مرموقة من مثل هذا المصير السيئ • وسواء تعرض أو لم يتعرض لمقنوعات قانونية ، فانه يعجز عن نشر أفكاره • وعندما يحدث هذا فى مجتمع ما ، فانه لا يستطيع بعد ذلك أن يسهم بأى شئ ذى قيمة فى حياة البشر الجماعية •

والتحكم فى دوافع الجشع والنهب ضرورى ضرورة ملحة ، لذلك فان الدول - وحتى الدولة العالمية - لازمة لتحقيق البقاء •

ولكننا لا يمكننا أن نكتفى بمجرد بقائنا أحياء بدلا من أموات - فنحن نود أن نعيش فى سعادة ، وبنشاط

وابداع . . . ولهذا الفرض يمكن للدولة أن تهييء بعضا من الظروف الضرورية ، ولكن فقط بشرط ألا تخمد ، في سعيها وراء الأمان ، الدوافع غير المنظمة غالبا ، التي تعطى الحياة طعمها وقيمتها . فما زال للحياة الفردية مكانتها الجديرة ، ويجب عدم اخضاعها كليا وبدرجة أكثر من اللازم لتحكم المنظمات الكبرى . والاحتياط من هذا الخطر ضروري جدا في العالم الذي حققته التقنية الحديثة .

الأخلاقيات الفردية والاجتماعية

فى محاضرتى الأخيرة هذه أود أن أفعل شيئين :

أولاً : أن أكرر بإيجاز الاستنتاجات التى وصلت إليها
فى المحاضرات السابقة •

وثانياً : أن أربط بين النظريات الاجتماعية والسياسية
وبين الأخلاقيات الفردية التى ينبغى على المرء الاسترشاد بها
فى حياته الشخصية ، وبعد المساوىء التى تعرفنا عليها
والأخطار التى اعترفنا بها ، أن نعقد - رغم ذلك - كنتاج
لعرضنا ، بعض الآمال الرفيعة لمستقبل البشرية غير البعيد
كثيراً - وهو الأمر الذى أعتقد - من جانبى - أن له مبرراته
على أساس التقدير المتزن للمكانات •

ولنبداً بالاعادة بإيجاز - فلقد ميزنا - بوجه عام -
غرضين رئيسيين للأنشطة الاجتماعية • فالأمن والعدالة من
ناحية ، يتطلبان إشرافاً حكومياً مركزاً ، يجب أن يمتد - إذا
قدر له أن يكون فعالاً - لتكوين حكومة عالمية • والتقدم ،
على العكس ، يتطلب أقصى مجال للسبق الشخصى الذى يتمشى
مع النظام الاجتماعى •

والوسيلة لتأمين أكبر قدر ممكن من هذين الهدفين هى
إسناد السلطة • فيجب على الحكومة العالمية ترك الحكومات
القومية حرة فى كل شئ لا يتعلق بمنع الحرب ، والحكومات
بدورها يجب أن تترك أكبر مجال ممكن للسلطات المحلية •
وفى الصناعة لا يصح أن نطن أن كل المشكلات سوف تحل
فى حالة التأمين • فصناعة ضخمة مثل السكك الحديدية -
يجب أن تتمتع بقدر كبير من الحكم الذاتى ، وعلاقة الموظفين

بالدولة فى صناعة مؤمنة يجب ألا تكون نسخة مكررة لعلاقتهم السابقة مع المستخدمين الخاصين . وكل ما يتعلق بالرأى ، مثل الصحافة ، والكتب ، والدعاية السياسية ، ينبغى تركه للمنافسة الحقيقية ، وحمايته بعناية من التحكم الحكومى ، وكذلك من كل شكل من أشكال الاحتكار الأخرى . ولكن المنافسة يجب أن تكون ثقافية وفكرية ، لا اقتصادية ، ولا عسكرية ، ولا بواسطة القانون الجنائى .

وفى الشئون الثقافية يكون التنوع شرطاً للتقدم . والهيئات التى تتمتع ببعض الاستقلال عن الدولة ، مثل الجامعات والجمعيات العلمية لها قيمة عظيمة فى هذا السبيل . ومما يرثى له أن نرى ، كما فى روسيا اليوم (★) ، رجال العلم مضطرين للمساهمة فى هراء تعيمى استجابة لأوامر سياسيين جهلة علمياً ، يستطيعون ومستعدون لفرض قراراتهم السخيفة باستعمال السلطة الاقتصادية والبوليسية . وهذه المشاهد التى يرثى لها يمكن منعها فقط بتحديد أنشطة السياسيين وقصرها على المجال الذى قد يكونون مؤهلين له . ولا يجوز لهم أن يتجروا على تقرير ما هو جيد من الموسيقى أو علم الأحياء أو الفلسفة . وأنا لا أرغب فى أن تتقرر هذه الأمور فى هذه البلاد بناء على الذوق الشخصى لأى رئيس وزراء ، سابقاً أو حاضراً أو مستقبلاً - حتى ولو كان ذوقه ، لحسن الحظ ، معصوماً من الخطأ .

وأصل الآن الى مسألة الأخلاقيات الشخصية ، كنقيض لمسألة القوانين الاجتماعية والسياسية . فما من شخص حر كلياً ، وما من شخص عبد كلياً . وبالدرجة التى يتمتع فيها رجل بالحرية يحتاج خلقاً شخصياً يسترشد به فى سلوكه . وهناك البعض ممن يقولون ان المرء يحتاج فقط لأن يطيع القانون الأخلاقى المقبول فى مجتمعه . ولكنى لا أظن أن أى دارس لعلم الانسان يمكن أن يكتفى بهذا الرد . فقد اختلفت ممارسات مثل أكل لحوم البشر والتضحية البشرية ،

(★) يلاحظ أن تاريخ المحاضرات هو ١٩٤٨ - ١٩٥٠ . (المترجمة)

وصيد الرءوس ، نتيجة للاعتراضات الأخلاقية على العرف الأخلاقي التقليدي . وإذا كان شخص ما يرغب في أن يعيش أفضل حياة متاحة ، فعليه أن يتعلم انتقاد العادات والمعتقدات القبلية المقبولة عموما لدى جيرانه .

ولكن بالنظر الى التخلي ، بوازع الضمير ، عما يعتبر صوابا بين المجتمع الذي ينتمى اليه المرء فينبغي التمييز بين سلطة العرف وسلطة القانون . فنحن نحتاج لتبرير فعل غير قانوني الى أسانيد أقوى كثيرا مما نحتاج اليه لتبرير فعل يتعارض فقط مع الخلق التقليدي . وذلك لأن احترام القانون شرط لا غنى عنه لقيام أى نظام اجتماعي محتمل . وعندما يعد شخص ما قانونا معيناً سيئا فإن له الحق في ذلك ، ويمكن أن يكون عليه واجب محاولة العمل على تغييره ، ولكن فقط في حالات نادرة ، يكون له حق انتهاكه . وأنا لا أنكر أن هناك مواقف تصبح فيها مخالفة القانون واجبا . وذلك عندما يؤمن شخص ما ايمانا عميقا أن من الاثم أن يطيع . وهذا يغطي قضية المعارض ذى الضمير اليقظ . وحتى ان كنت مقتنعا تماما بأنه مخطيء ، فلا يمكنك القول بأنه لم يكن له أن يتصرف بما يمليه ضميره . وعندما يكون واضعو القانون حكماء ، فانهم يتعاشون بقدر الامكان، تشكيل القوانين بالطريقة التي ترغب الأشخاص ذوى الضمير الحي على الاختيار بين الاثم وبين ما هو مجرم قانونا .

وأعتقد أنه يجب علينا أيضا أن نعترف بأن هناك حالات يكون فيها للثورة ما يبررها . فهناك حالات تكون فيها الحكومة الشرعية سيئة بدرجة أن يبدو اسقاطها بالقوة مجديا ، رغم ما ينطوى عليه ذلك من خطر الفوضى المرتبط بها . وهذا الخطر حقيقي تماما . ومما يستحق الذكر أن أكثر الثورات نجاحا : ثورة انجلترا سنة ١٦٨٨ و ثورة أمريكا في سنة ١٧٧٦ - قد نفذها رجال كانوا يحترمون القانون من أعماقهم . وعندما ينتفى هذا يحتمل أن تؤدي

الثورة اما الى فوضى واما الى ديكتاتورية . ولهذا ، فان طاعة القانون ، ولو لم تكن مبدأ مطلقا فهي مبدأ يجب أن ندعمه بقوة ، وأن نعترف باستثناءاته فقط في حالات نادرة ، وبعد مداولة رشيدة . وخلال التاريخ المسجل ، كان للمعتقدات الأخلاقية مصدران مختلفان تماما : أحدهما سياسى والثانى متعلق بالمعتقدات الدينية والأخلاقيات الشخصية . وفى انجيل العهد القديم ، يظهر الاثنان منفصلين تماما - واحد على أنه القانون ، والثانى على أنه الأنبياء . وفى (العصور الوسطى) ، كان هناك نفس نوع التمييز بين الاخلاق الرسمية التى تدعو اليها هيئات الكهنوت ، والقدسية الشخصية التى كان يعلمها ويمارسها كبار الصوفيين . وهذه الازدواجية للأخلاقيات الشخصية والمدنية ، التى مازالت قائمة ، هى ازدواجية يتحتم على أى نظرية أخلاقية مناسبة أخذها فى الاعتبار . فبدون الأخلاقيات المدنية تهلك المجتمعات ، وبدون الأخلاقيات الشخصية لا يكون لبقاء هذه المجتمعات أية قيمة . ولهذا فان الأخلاقيات المدنية والشخصية ضرورية بدرجة متساوية لأى عالم خير .

ولا يختص علم الأخلاق فقط بواجبى نحو جارى ، مهما كان تصور هذا الواجب العام سليما ، ولا تتحقق الحياة الخيرة بأداء الواجب العام فقط ، فهناك أيضا السعى لتحقيق الامتياز الشخصى . ذلك لأن الانسان رغم كونه اجتماعيا الى حد ما ، الا أنه ليس كذلك كليا ، فله خواطر ومشاعر ودوافع يمكن أن تكون رزينة أو طائشة ، راقية أو دنيئة ، مفعمة بالحب أو توحىها الكراهية . ويجب لكى تكون حياته محتملة ، أن يكون هناك مجال للأفضل بين هذه الخواطر والمشاعر والدوافع . ذلك أنه بالرغم من أن قليلا من الناس يمكن أن يكونوا سعداء فى الوحدة ، فان أناسا أقل منهم يمكن أن يسعدوا فى مجتمع لا يسمح بحرية التصرف الفردى .

والامتياز الفردى ، رغم أن معظمه يعتمد على السلوك السوى نحو الآخرين ، فان له أيضا مظهرا آخر . فإذا أنت

أهملت واجباتك لأجل تسلية تافهة ، فسوف تشعر بوخز الضمير ، ولكن اذا استهوتك لبعض الوقت موسيقى عظيمة ، أو غروب شمس رائع ، فسوف تعود بدون أى شعور بالحجل ، ولا بأنك كنت تضيع وقتك هباءً . ومن الخطر السماح للسياسة وللواجب الاجتماعى أن يسيطر أكثر من اللازم على فكرتنا عما يشكل الامتياز الفردى . والذى أحاول التعبير عنه - رغم عدم اعتماده على أى اعتقاد (لاهوتى) ، ينسجم تماما مع الأخلاقيات المسيحية . فقد أرسى سقراط والرسول مبدأ أن علينا أن نطيع الله لا الانسان ، وتعاليم الانجيل تفرض حب الله وحب جيراننا بنفس القدر من التأكيد . وكل عظماء القادة الدينيين ، وكذلك كل عظماء الفنانين والمكتشفين الفكريين قد أبدوا شعورا بالالتزام الخلقى لتحقيق دوافعهم الابداعية ، وشعروا بالسمو الأخلاقى بعد أن فعلوا ذلك . وهذا الانفعال هو أساس ما يسميه الانجيل الواجب نحو الله ، وهو (وأكرر) منفصل عن الايمان اللاهوتى . وواجبى نحو جارى ، على أية حال كما يتصوره جارى ، قد لا يكون ثل واجبى . فلو كان لى اعتقاد ضميرى عميق بأنه يجب على أن أتصرف بطريقة تحرمها السلطة الحاكمة ، فعلى أن أتبع اعتقادى . وبالعكس يجب على المجتمع أن يتيح لى حرية اتباع معتقداتى الا اذا وجدت مبررات قوية لمنعى من ذلك .

ولكن - ليست فقط الأفعال التى يوحى بها الشعور بالواجب هى التى يجب أن تتحرر من الضغط الاجتماعى المفرط . فقد يؤدى فنان أو مكتشف علمى عملا بالغ الفائدة للمجتمع ، ولكنه لا يستطيع أداء عمله بدافع من الشعور بالواجب فقط . فيجب أن يكون لديه دافع تلقائى لأن يرسم أو أن يكتشف ، والا ، فان رسمه سيكون غير ذى قيمة ، واكتشافاته غير مهمة .

ولا يجوز اعتبار مجال التصرف الفردى أدنى أخلاقيا من مجال الواجب الاجتماعى . وعلى العكس فان أفضل

الأنشطة البشرية هي - على الأقل شعوريا ، شخصية أكثر منها اجتماعية . وكما قلت في المحاضرة الثالثة ، فالأنبياء والصوفيون والشعراء والعلماء والمكتشفون هم جميعا رجال تسيطر على حياتهم رؤية ، وهم أساسا معتزلون . وعندما يكون دافعهم المسيطر قويا ، يشعرون بأنهم لا يستطيعون اطاعة السلطة اذا تصرفت عكس ما يعتقدون بعمق أنه خير . وبالرغم من أنهم - على هذا الأساس - كثيرا ما يضطهدون أثناء حياتهم ، فالمتوقع أن يصبحوا ، من بين كل الرجال ، أولئك الذين يقدم لهم الخلف أسمى درجات التكريم . وهؤلاء هم وحدهم الذين يزودون العالم بالأشياء التي نقدرها أكثر - ليس فقط في الدين والفن والعلوم ، ولكن أيضا في طريقة شعورنا نحو جارتنا ، لأن التحسينات في الوعي بالواجب الاجتماعي كما هو الحال في كل شيء آخر جاءت أغلبها بفضل أشخاص معتزلين ، لم تخضع خواطرهم ومشاعرهم لسلطان الجماهير .

واذا أردنا ألا تصبح الحياة البشرية تافهة وغير مشوقة ، فمن المهم أن نتبين أن هناك أمورا لها قيمة وهي مستقلة تماما عن النفع المادي . فما يكون مفيدا لأنه وسيلة لتحقيق شيء آخر ، والشيء الآخر ، ان لم يكن بدوره مجرد وسيلة ، يجب تقييمه لذاته ، والا فان الفائدة تكون وهمية . وتحقيق التوازن السليم بين الغايات والوسائل عملية صعبة ومهمة . فان كنت مهتما بتأكيد دور الوسيلة ، فقد تبين أن الفارق بين رجل متحضر وآخر همجي ، وبين شخص بالغ وطفل ، وبين رجل وحيوان ، يتوقف معظمه على الفارق بين الأهمية التي تعلقها في السلوك على الغايات والوسائل . فالرجل المتحضر يؤمن على حياته ، بينما الهمجي لا يفعل ذلك الا مضطرا ، والرجال يعملون في الحقول بجهد ليوفروا الغذاء للشتاء ، والحيوانات لا تفعل ذلك . وبعد النظر الذي ينطوي على أداء أمور غير محببة الآن من أجل أمور محببة في المستقبل هو واحد من أهم العلاقات الجوهرية للتقدم الفكري .

ولكون بعد النظر صعبا ، ويتطلب التحكم فى الدافع ، فان علماء الأخلاق يؤكدون ضرورته ، ويؤكدون على فضائل التضحية حاضرا أكثر مما يفعلون على متعة الجزاء اللاحق . فيجب عليك أن تعمل صالحا لأنه الصواب ، لا لأنه الطريق الى الجنة . وعليك أن توفر مالا لأن كل العاقلين يفعلون ، وليس لأنك قد تستطيع فى النهاية تحقيق دخل يساعدك على الاستمتاع بالحياة - وهكذا . .

ولكن الشخص الذى يريد أن يؤكد دور الغاية بدلا من الوسيلة يمكنه أن يقدم جدلا مضادا مع صدق مماثل . فمن المحزن أن ترى رجل أعمال مسنا وثرى ، قد أصبح مريضا بسبب الهم والعمل فى شبابه ، حتى صار لا يستطيع ، لسوء الهضم ، أن يتناول فى طعامه أكثر من الخبز المقدد والماء القراح ، بينما ضيوفه غير المبالين يستمتعون بالوليمة . فمتع الثراء ، التى كان قد توقعها طيلة سنوات العمل الشاق الطويلة ، تولى عنه ، وتبقى له متعة وحيدة ، وهى استعمال سطوته المالية لارغام أبنائه على الاستسلام بدورهم الى كدح مماثل وغير مجد . والبخلاء الذين يكون استغراقهم فى الوسائل مرضيا ، يعدون عموما غير عقلاء ، ولكن اشد من هذا المرض الأقل خطورة كفيلة بأن تصادف اطراء مفرطا . وبدون بعض الوعى بالأهداف تصبح الحياة كئيبة باهتة . وفى النهاية ، فى كثير من الأحيان - تجدد الحاجة للاثارة متنفسا أسوأ مما كان ممكنا ، فى مجال الحرب أو القسوة أو الخداع ، أو بعض الأنشطة الهدامة الأخرى .

والأشخاص الذين يفخرون بكونهم ما يسمى «بعمليين» ينشغلون فى أغلب الوقت بالوسيلة بطريقة مائعة . ولكن حكمتهم نصفية فقط . وعندما تأخذ فى الاعتبار النصف الآخر ، الذى يختص بالغاية ، تتخذ العملية الاقتصادية ، وكل الحياة الانسانية ، مظهرا جديدا بالكامل - فلا نسأل بعد ذلك « ماذا أنتج المنتجون » ، ولا « ماذا فعل الاستهلاك لتمكين المستهلكين بدورهم ؟ » وبدلا من ذلك نسأل « ماذا استجد فى حياة المستهلكين والمنتجين مما يجعلهم مبتهجين

لبقائهم على قيد الحياة ؟ وبماذا شعروا وبماذا عرفوا أو فعلوا مما يمكن أن يبرر وجودهم . هل مارسوا زهو المعرفة الجديدة ؟ هل أتاحت لهم معرفة الحب والصداقة ؟ هل استمتعوا بشروق الشمس والربيع ورائحة الزهور ؟ هل استشعروا متعة الحياة التي تعبر عنها المجتمعات البسيطة بالرقص والغناء ؟ - وفي ذات مرة ، في لوس أنجلوس صحبوني لأرى المستعمرة المكسيكية التي قيل لي انها « للمشردين الكسالى » ولكنهم في نظري ، بدوا أكثر استمتاعا بما يجعل الحياة نعمة لا نقمة مما يحققه فريق مضيئى القلقين والعاملين بجد . وعندما حاولت شرح شعورى هذا - على أية حال - قوبلت بدهشة وعجز تام عن الادراك .

والناس لا يتذكرون دائما ان السياسة والاقتصاد والتنظيم عامة ، تنتمى لمجال الوسائل لا الغايات . ويتعرض فكرنا السياسى والاجتماعى لما يمكن تسميته (مغالطة الادارى) . وأقصد بها عادة النظر الى مجتمع ما على أنه كل نظامى ، من النوع الذى يعد جيدا اذا كان يبعث السرور فيمن يتأمله كنموذج للنظام ، وكتركيب مخطط بأجزاء معشقة بدقة بعضها فى بعض . ولكن أى مجتمع لا يقوم أو لا يصح أن يقوم ليرضى نظرة ظاهرية عامة ، بل ليجلب حياة طيبة للأفراد الذين يكونونه . ويجدر البحث عن القيمة النهائية فى الأفراد وليس فى المجموع . والمجتمع الجيد يكون وسيلة لتحقيق حياة طيبة لأولئك الذين يكونونه ، وليس شيئا له تميز مستقل لحسابه ذاته .

وعندما نقول ان الأمة كائن حى ، فاننا نستعمل تشبيها قد يكون خطيرا اذا لم نتعرف على سلبياته . فالرجال والحيوانات الراقية كائنات حية بمعنى دقيق . وأى خير أو شر يصيب شخصا انما يصيبه هو ك شخص منفرد ، وليس هذا الجزء أو ذاك منه . فاذا كنت أعانى من ألم فى أسناني ، أو فى أصبع قدمي فانى أنا الذى أتألم ، ولن يكون هناك ألم ان لم توجد أعصاب تصل الجزء المصاب بمعنى .

ولكن عندما يفاجأ مزارع فى هيرفوردشير بمأصفة - فليست الحكومة فى لندن هى التى تشعر بالبرد . ولهذا السبب فان الشخص الفردى هو الذى يتحمل الخير أو الشر ، وليس ، من ناحية ، أى جزء منفصل من الشخص ، ولا من الناحية الأخرى ، أى مجموعة من الأشخاص . ومن الخطأ أن نعتقد بإمكان وجود خير أو شر فى مجموعة من الناس بدرجة أكثر من الخير والشر فى أفراد متنوعين - وهو أكثر من ذلك - خطأ يؤدى مباشرة الى نظام حكم الحزب الواحد ، وهو لذلك خطأ خطير .

وهناك فئة من الفلاسفة ورجال السياسة ممن يظنون أن الدولة يمكن أن تحقق تميزا لذاتها ، وليس كمجرد كونها وسيلة لتحقيق صالح المواطنين . وأنا لا أستطيع رؤية أى سبب للموافقة على هذا الرأى . فالدولة لفظ مجرد ، لا تشعر بالبهجة أو بالألم ، وليست لها آمال أو مخاوف ، وما نفكر فيه كأغراضها هو فى الحقيقة أغراض أفراد يقودونها . وعندما نفكر بطريقة مجسدة ، لا مجردة ، نجد فى مكان (الدولة) أشخاصا معينين لهم سطوة أكثر مما لغيرهم من أغلب الناس . وهكذا فتمجيد (الدولة) يتضح فى الحقيقة أنه تمجيد لأقلية حاكمة . وما من شخص ديمقراطى يمكنه قبول مثل هذه النظرية الظالمة من أساسها .

وهناك نظرية أخلاقية أخرى ، تبدو لذهنى أيضا غير ملائمة . وهى تلك التى قد يمكن تسميتها النظرية (البيولوجية) ، ولو أنى لا أود تأكيد أن البيولوجيين يأخذون بها . وهذا الرأى مشتق من تأمل التطور . ومفروض أن الصراع للبقاء قد أدى تدريجيا الى كائنات حية متزايدة التعقيد تبلغ ذروتها (حتى الآن) فى الانسان . وبناء على هذا الرأى فان البقاء هو الغاية القصوى ، أو بالأحرى ، بقاء نوع المرء ذاته . واذا كانت هذه النظرية صحيحة ، فان كل ما يعمل على زيادة عدد سكان الأرض من البشر ، يفترض اعتباره « خيرا » ، وكل ما ينقص عدد السكان مفروض اعتباره « سيئا » .

وأنا لا أستطيع رؤية أى مبرر لمثل هذه النظرة الحسابية والآلية . فقد يكون سهلا أن نجد فدانا واحدا يحوى نملا يزيد عددا عن كل البشر فى العالم أجمع ، ولكننا لا نعترف على هذا الأساس بالتميز الفائق للنمل . ومن من البشر يمكن أن يفضل شعبا ضخما يعيش فى بؤس وفقر ، على شعب أصغر يعيش فى سعادة وراحة وفيرة ؟

وحقيقى بالطبع ان البقاء هو الشرط الضرورى لكل شىء آخر ، ولكنه شرط لكل ما له قيمة ، وقد لا تكون له قيمة فى حد ذاته . والبقاء فى العالم الذى استحدثه العلم الحديث والتقنية ، يتطلب كثيرا جدا من الحكومة . ولكن ما يجعل للبقاء قيمة يجب أن يأتى أساسا من مصادر توجد خارج الحكومة . والتوفيق بين هذين المطلبين المتعارضين كان وما يزال مشكلتنا فى هذه المناقشات .

والآن ونحن نجمع خيوط هذه المناقشات ، ونتذكر كل مخاطر زماننا ، أود أن أكرر استنتاجات معينة ، وبتحديد أكثر ، أن أعلن الآمال التى أعتقد أن لنا ، على أسس عقلانية ، أن نعقدتها ونتعمل بها .

فبين أولئك الذين يهتمون أكثر بالتماسك الاجتماعى وأولئك الذين يقدررون أولا السبق الفردى ، قامت وما زالت معركة طويلة الأمد منذ زمن الاغريق القدماء . وفى كل جدل طويل كهذا من المؤكد أن يكون هناك صدق على كلا الجانبين ، ولا يحتمل أن يوجد حل واضح الحدين ، ولكن فى أفضل الأحوال يوجد حل يتضمن تعديلا ، وحلول وسط مختلفة .

وخلال التاريخ على امتداده ، كما ألمحت فى محاضرتى الثانية ، كانت وما زالت هناك ذبذبات بين فترات الفوضى المفرطة وفترات من سيطرة الحكومة الصارمة . وفى وقتنا الحاضر ، باستثناء (ما يستجد من) موضوع الحكومة العالمية ، كان وما يزال هناك ميل زائد نحو السلطة ، واهتمام ضئيل جدا للحفاظ على سبق . وقد اتجه الأشخاص المتحكمون فى مؤسسات شاسعة لأن يصبحوا مجردين أكثر

من اللازم فى وجهات نظرهم ، لدرجة نسيان طبيعة البشر
الحقيقيين ، ومحاولة ملائمة الأشخاص للأنظمة بدلا من
ملائمة الأنظمة للأشخاص .

والافتقار للتلقائية ، وهى الظاهرة التى تميل
مجتمعاتنا الراقية التنظيم للمعاناة منها ، يرتبط بالسيطرة
البالغة لسلطات نائية على مناطق واسعة .

واحدى المزايا التى يمكن كسبها من اللامركزية هى انها
تحقق فرصا جديدة للأمال ، وللأنشطة الفردية التى تجسد
هذه الأمال . واذا انشغلت كل خواطرنا السياسية بالمشكلات
والأخطار الكبرى لكارثة العالم فمن السهل أن يتسرب اليأس
الى نفوسنا . والمخاوف من الحرب ، ومن الثورة ومن ردود
الفعل ، يمكن أن تستولى جميعها عليك حسب نوعية مزاجك ،
وميولك الحزبية . وما لم تكن واحدا من عدد صغير من الأفراد
الاقوياء ، فيحتمل أن تشعر بأنك لا تملك أن تفعل الكثير
بالنسبة لهذه الأمور العظيمة . ولكن فيما يتعلق بالمشكلات
الأصغر ، مشكلات بلدتك أو نقابتك ، أو الفرع المحلى لحزبك
السياسى - مثلا - فيمكنك أن تؤمل أن يكون لك تأثير ناجح .
وهذا من شأنه أن يولد روحا متفائلة - والروح المتفائلة
هى أهم ما نحتاج اليه اذا تعين علينا أن نجد وسيلة للتعامل
بنجاح مع المشكلات الكبرى . ولقد تسببت الحرب وأنواع
المعجز والضيق المالى فى ارهاق يكاد يكون شاملا - وجعلت
التعلق بالأمل يبدو ضعلا وغير خالص . والنجاح (حتى ان
كان فى البداية ، على نطاق محدود) هو أفضل علاج لهذا
المزاج من الارهاق والتشاؤم . والنجاح بالنسبة لغالبية
الناس يعنى تجزئة مشكلاتنا ، وأن نكون أحرارا للتركيز
على تلك التى ليست ضخمة بدرجة تبعث على اليأس .

ولقد أصبح العالم فريسة لعقائد سياسية مؤكدة بغير
دليل ، أكثرها سطوة فى يومنا الحاضر (★) هما الرأسمالية
والشيوعية . ولا أعتقد أن أيا منهما - فى شكل جازم وغير

(★) يلاحظ تاريخ الحاضرة (سنة ١٩٤٨) . (المترجمة)

مخفف ، يمكنها تقديم علاج للمساوىء التى يمكن منعها .
فالرأسمالية تتيح فرص السبق لقليلين ، والشيوعية يمكنها
(ولو أنها فى الواقع لا تفعل) أن توفر للجميع نوعا من
الأمان الرقى . ولكن اذا كان فى استطاعة الناس تخلص
أنفسهم من النظريات بالفة البساطة ومن الصراع الذى
تولده ، فسوف يصبح فى الامكان ، بتوظيف حكيم للتقنية
العلمية ، تزويد الجميع بكل من الفرص للجميع والأمن
للجميع . ولسوء الحظ فان نظرياتنا السياسية اقل ذكاء
من علومنا ، ونحن لم نتعلم بعد كيف نفيد من معرفتنا
ومهارتنا بالطرق التى تحقق الكثير لجعل الحياة سعيدة ، بل
ومجيدة أيضا .

وليست فقط تجربة الحرب والخوف منها هى الأمور التى
تحزن ، ولو أن هذه قد تكون الأقوى بين كل مساوىء
زماننا . ونحن نعانى من القوى غير الشخصية العظمى التى
تسيطر على حياتنا اليوم ، فتسبب بقاءنا عبيدا للظروف ،
ولو أننا لم نعد عبيدا بحكم القانون . ولا داعى لأن تكون
هذه هى القضية ، فقد ظهرت من خلال عبادة آلهة زائفة .
ولقد عبد الرجال النشطون السطوة بدلا من السعادة
والصداقة البسيطتين ، وأذعن الرجال الأقل طاقة ، أو خدعوا
بتشخيص خاطيء ، لمصادر الأحزان .

ومنذ بدع البشر العبودية — اعتقد الأقوياء ان سعادتهم
يمكن تحقيقها بوسائل تستلزم فرض البؤس على الآخرين .
وتدريجيا ، مع نمو الديمقراطية ، والتطبيق الحديث جدا
للأخلاقيات المسيحية على السياسة والاقتصاد ، بدأت تسود
مثل أفضل من مثل ملاك العبيد . وقد تم الآن الاعتراف
بمتطلبات العدالة كما لم يحدث أبدا فى أى أزمنة سابقة .
ولكننا ، فى سعينا وراء العدالة بواسطة أنظمة معقدة ،
غدونا عرضة لنسيان أن العدالة وحدها غير كافية ، فالمسرات
اليومية ، وأوقات التحرر من الهموم ، والمغامرة ، والفرص
المتاحة لأنشطة الابداع ، لها جميعها ، على الأقل ، نفس

الأهمية التي للعدالة ، في تحقيق حياة يشعر الناس بأنها تستحق أن يعيشوها .

ويمكن أن يكون الملل مميتا أكثر من توالى البهجة والكرب . والرجال الذين يبتكرون اصلاحات ادارية وخططا لتحسين المجتمع أغلبهم رجال جادون ممن تخطوا سن الشباب . ولقد نسوا في كثير من الأحيان أن من الأمور الضرورية لتحقيق السيادة لأغلب الناس نوعا من الكبرياء الذاتية بالاضافة الى التلقائية . واعتزاز منتصر عظيم ليس مما يمكن أن يتيحه عالم حسن التنظيم . ولكن اعتزاز الفنان والمكتشف ، والرجل الذى أحال البیداء الى حديقة ، أو حقق سعادة بدلا من يؤس مؤكداً - مثل هذا الاعتزاز جيد ، ويتعين على نظامنا الاجتماعى أن يجعله ممكنا ، ليس فقط للقليلين، ولكن للكثيرين جدا .

والغرائز التى حفزت ، منذ أمد بعيد ، أنشطة الصيد والقتال عند أجدادنا الهمج ، تتطلب منفذا ما، وان لم تجده، فستتحول حتما الى الكراهية والحقد المحيط . ولكن هناك منافذ لهذه الغرائز بالذات ، وهى منافذ غير ضارة . فيمكن استبدال القتال بالمنافسة والرياضة النشطة ، واستبدال الصيد بمتعة المفامرة والاكتشاف والابداع . ولا يجوز لنا أن نتجاهل هذه الغرائز ، ولسنا فى حاجة للأسف لوجودها ، فهى المصدر ليس فقط لما هو سيىء ، بل أيضا لكل ما هو متميز فى انجاز البشر . وعندما يتحقق الأمان ، فإن أهم عمل لأولئك الذين ينشدون صالح البشرية سوف يكون ايجاد منافذ عديدة ، بقدر الامكان ، لهذه الغرائز القوية العتيقة - منافذ تهيب البهجة والفخر والاعتزاز والروعة للحياة البشرية ، وليس فقط مجرد قيود لكبحها ولا منافذ تجلب الدمار .

وخلال كل عصور التطور البشرى تعرض الناس لضروب يؤس من نوعين : ذلك الذى تفرضه الطبيعة الخارجية ، وذلك الذى أنزله البشر بعضهم على بعض لسوء التوجيه . وفى

البداية كانت أسوأ ضروب الشر تلك التي ترجع للبيئة • فقد كان الانسان نوعا نادرا ، وكان بقاؤه غير مضمون • وبدون خفة الحركة عند القرد ، وبدون أى رداء أو فراء ، كان من الصعب عليه الهروب من الحيوانات المتوحشة ، وفى أغلب أنحاء العالم لم يكن يحتمل برودة الشتاء • وكانت له فقط ميزتان بيولوجيتان : الوضع الرأسى الذى حرر يديه ، والذكاء الذى مكنه من نقل تجربته للآخرين • وبالتدريج أتاحت له هاتان الميزتان التفوق • فتزايدت أعداد النوع البشرى أكثر من أى نوع آخر من الحيوانات الثديية - ولكن بقى فى وسع الطبيعة تأكيد سطوتها بواسطة الفيضان والمجاعة والوباء ، وبفرض الكد المتواصل على الغالبية العظمى من الجنس البشرى ، لتأمين لقمة العيش اليومية • وفى عصرنا نحن ، يتناقص بسرعة ارتباطنا الوثيق بالطبيعة الخارجية ، نتيجة لنمو الادراك العلمى • فالمجاعات والأوبئة مازالت واردة ، ولكننا نعرف سنة بعد سنة أفضل ما يجب عمله لمنعها • ومازال العمل بجهد ضروريا ، ولكن فقط لأننا غير حكماء • فبعد أن أتيح لنا السلام والتعاون كان يمكننا أن نعيش بقدر معقول جدا من العمل الشاق • ومع التقنيات القائمة ، يمكننا كلما أردنا ممارسة الحكمة ، أن نتحرر من الكثير من أشكال تحكم الطبيعة الخارجية •

ولكن ضروب الشر التى ينزلها الناس بعضهم ببعض لم تتناقص بنفس الدرجة : فمازالت هناك حروب، واضطهادات وضروب من القسوة المقيتة ، ومازال الرجال الجشعون ينتزعون الثروة من أولئك الأقل مهارة أو الأقل قسوة منهم أنفسهم • ومازال حب السيطرة يؤدى الى أعمال استبدادية أو الى مجرد التعطيل والاعاقة ، عندما تستحيل أشكالها الأكثر فظاظة • والخوف الدفين - الخوف اللاواعى تقريبا ، مازال الدافع المسيطر فى حياة الكثيرين جدا •

وكل هذا غير ضرورى ، فليس ثمة فى الطبيعة البشرية ما يجعل هذه المساوئ حتمية • وأود أن أكرر ، مع كل

ما يمكن من تأكيد ، أننى أختلف كلياً مع أولئك الذين يستنتجون من حوافزنا الصراعية أن الطبيعة البشرية تستلزم الحرب وأنواعاً أخرى من الصراع الهدام . بل انى أعتقد بقوة عكس هذا تماماً ، وأنادى بأن الحوافز الصراعية لها دور جوهري تلعبه ، وأنها فى أشكالها المؤذية يمكن تقليصها بدرجة بالغة .

وسوف يتناقص حتما جشع التملك حيثما يختفى الخوف من العوز والاملاق . ويمكن اشباع السطوة بطرق عديدة لا يتبعها ايدام للآخرين : وذلك بالسيطرة على الطبيعة عن طريق الاكتشاف والاختراع ، وبانتاج كتب محببة أو أعمال فنية وبالاقناع الناجح . فكل من النشاط والرغبة فى أن تكون مجدياً خير اذا وجد المنفذ السليم ، ومؤذ ان لم يفعل ، مثل البخار الذى يستطيع اما دفع القطار أو تفجير الغلاية .

وقد أتاح لنا تحررنا من التبعية للطبيعة الخارجية درجة أعلى من الخير البشرى عما كان متاحاً حتى وقتنا هذا . ولكن اذا أردنا تحقيق هذه الامكانية ، فلا بد من اتاحة حرية السبق بكل الطرق غير المؤذية ، وتشجيع تلك الأشكال من السبق التى تثرى حياة الانسان . ولن نخلق عالماً خيراً بمحاولة جعل الناس باردين وجبناء ، ولكن بتشجيعهم على الجرأة والمغامرة بدون الخوف اللهم الا من انزال ضروب الأذى على رفاقهم من البشر . وفى العالم الذى نجد أنفسنا فيه تكاد امكانات الخير أن تكون بغير حدود ، وامكانات الشر لا تقل عنها . ويرجع مآزقنا الحاضر ، أكثر من أى شئ آخر ، الى حقيقة أننا تعلمنا أن نفهم وأن نتحكم ، بدرجة مخيفة ، فى قوى الطبيعة خارجنا ، دون تلك التى تحتويها أنفسنا .

والتحكم فى الذات ، كان ومازال دائماً شعاراً لدعاة

الفضيلة ، ولكنه كان دائما - فى الماضى - تحكما بدون ادراك . وقد حاولت فى هذه المحاضرات الوصول الى ادراك لاحتياجات البشر أوسع من المسلم به لدى أغلب رجال السياسة والاقتصاد ، ذلك لأنه فقط عن طريق مثل هذا الادراك يمكننا أن نمضى قدما نحو تحقيق تلك الآمال التى رغم أن معظمها مازال مكبوتا بسبب طيشنا ، قد جعلتها مهارتنا فى تناول أيدينا .

الحواشي

- ١ - نينيفه Nineveh
مدينة قديمة فى آشور مواجهة للموصل وقد سقطت سنة ٦١٢ ق م .
- ٢ - بابيلون Babylon
مدينة قديمة فى آسيا على نهر الفرات جنوب بغداد . وكانت عاصمة الامبراطورية البابيلونية وازدهرت بين سنوات (١٨٠٠ - ٥٠٠ ق م) وكانت بها مبان فخمة وحدائقها المعلقة احدى عجائب الدنيا السبع .
- ٣ - بابيين Papuans
سكان بابيوا وهى اقليم فى جنوب شرق غينيا الجديدة بافريقيا .
- ٤ - ستونهنج : Stonehenge
احد آثار ما قبل التاريخ بجنوب انجلترا . وهو بناء دائرى كُن يستعمل قديما فى عبادة الشمس .
- ٥ - الغال Gaul
بلاد الغول او الغال وتشمل : اراضى فرنسا وبلجيكا وهولندا والمانيا قديما .
- ٦ - آتिला Attila
ملك الهون (٤٠٥ - ٤٥٣ م) : خلف هوو اخوه عمهما سنة ٤٣٤ . وبعد ان قتل اخاه ، أخضع برابرة آخرين ، وقادهم عبر نهر الدانوب سنة ٤٤٧ وأحدثت أعمال النهب التى ارتكبها تأثيرا مخيفا على الامبراطورية البيزنطية . وقد اكتسحت قواته اراضى المانيا ودخلت فرنسا .
- ٧ - جنجيز خان Jenghis Khan
امبراطور مجولى (١١٦٣ - ١٢٢٧) أعلن امبراطورا للبلاد سنة ١٢٠٦ وقاد جيوشه الى داخل الصين وتركستان والفرس والهند .

٨ - آزتك Aztec

شعب هندي يعيش في المكسيك عندما غزا الأسبان البلاد في القرن الخامس عشر . وقد جاءوا من الشمال واستولوا على التراث الطولتي وانشأوا مملكة قوية هزمها كورتيس في القرن السادس عشر . وكانوا متقدمين في الزراعة والفن والبناء والهندسة وقد عبدوا كثيرا من الآلهة .

٩ - انكا Inca

شعب له حضارة قد تعود الى ١٢٠٠٠ ق م . وكانوا يملكون امبراطورية تغطي اقاليم بيرو الحديثة وجزءا من بوليفيا وشيلي . وقد اطاح بها بيزارو في سنة ١٥٣٢ . وقد احرز الانكاين ثقافة راقية كما يظهر من نظامهم الاجتماعي وزراعتهم ومبانيهم ومنسوجاتهم .

١٠ - ميزوبوتيميا Mesopotamia

افليم في آسيا يجري فيه نهرا دجلة والفرات . ويرجع تاريخه الى آلاف السنين قبل الميلاد وهو الاراضى القديمة للعراق الحديث .

١١ - جبال البرانس Pyrenees

سلسلة جبال البرانس جنوب غربى اوريا وتفصل بين فرنسا واسبانيا . وتمتد من البحر الأبيض المتوسط الى خليج بسكاي .

١٢ - باليوليثيك Paleolithic

تعبير يشير الى الأدوات المنحوتة التى انتجها رجال العصر الحجري القديم .

١٣ - هايلاندز Highlands

الاراضى المرتفعة فى شمال سكوتلندا ولاهاليا موسيقى خاصة (موسيقى القرب) .

١٤ - الرواقيين Stoics

مدرسة فلسفية قديمة كان لها اثر كبير على عالم روما .

١٥ - Totalitarian

نظام حكم شمولى - يركز السلطة فى ايدي حاكم واحد او حزب واحد - مثل النازية فى عهد هتلر والفاشية فى عهد موسوليني .

١٦ - سقراط Socrates

فيلسوف يوناني (٤٤٩ - ٣٣٩ ق م) كرس آخر سنى حياته
للفلسفة - وعلم ارسنوفيس وافلاطون وآخرين . ونادى بان
معرفة الذات اهم من التأمل فى الكون . وان الصدق (الحكمة)
والفضيلة متصلان وان الرذيلة مصدرها الجهل .

١٧ - Gospels

الكتب الأربعة الأولى من العهد الجديد .

١٨ - Xerxes شريكس

ملك الفرس (٤٨٥ - ٤٦٥ ق م) قاد حملة ضد الاغريق سنة
٤٥٠ ق م . وهزمهم ثم هزموا هم (الفرس) فى البحر - وقد
اغتيل فى النهاية .

١٩ - Robespierre روبسبير

قائد ثورى فرنسى اصبح قائدا لليمقوبيين ، وكان عضوا فى لجنة
الامن العام وله صلة بحكم الارهاب وقد انقلب اتباعه ضده
واعدام بالجيلوتين .

٢٠ - Captain Kidd كابتن كيد

قرصان انجليزى سجن وشنق لهذا السبب وذلك سنة ١٧٠١ .

٢١ - Bach جون سياستيان باخ

موسيقى المانى شهير (١٦٨٥ - ١٧٥٠) .

٢٢ - Achilles اخيل

بطل اغريقى مشهور .

٢٣ - «Tell his tale under the Hawthorn in the dale»

اشارة الى بيت شعر للشاعر ميلتون بالانجليزية

٢٤ - Siena سينا

مدينة فى توسكانيا بايطاليا جنوب فلورنسا - بها جامعة منذ
القرن الثالث عشر وكاتدرائية قوطية وشعبها اكثر من ٢٢٠٠٠
نسمة .

٢٥ - Beavers السمورات

حيوانات من القوارض ثمينة الفراء .

٢٦ - كافنديش Cavendish Henry

عالم كيمياء وطبيعة انجليزى (١٧٣١ - ١٨١٠) اكتشف الهيدروجين سنة ١٧٦٦ ، وحدد مكونات الماء والهواء . وحول الأوكسوجين والهيدروجين مجتمعين الى ماء قبل سنة ١٧٨٤ .

٢٧ - فارادى Faraday, Michael

عالم كيمياء وطبيعة (١٧٩١ - ١٨٦٧) كان يعمل بتجليد الكتب ، ثم درس فى وقت فراغه العلوم وفى سنة ١٨٢٧ أصبح استاذًا للكيمياء فى المعهد الملكى . وقادت بحوثه فى الكهرباء الى علم الكيمياء الكهربائية .

٢٨ - مندل Mendel, Abbe Gregor

عالم نمساوى (١٨٢٢ - ١٨٨٤) قام ببحوث أدت الى نظرية مندل فى الوراثة .

٢٩ - بيجل Beagle

كلب صغير يستعمل أساسا فى صيد الأرناب . وهو من سلالة الثعلب - ذكى وله حاسة شم قوية والمقصود هنا رحلة البيجل للفضاء .

٣٠ - كوينزبرى Queensberry

وصف يسند لقواعد الملاكمة ، وكان قد وضعها المركز كوينزبرى وهو مشهور برعايته للرياضة .

اقرأ فى هذه السلسلة

- أحلام الاعلام وقصص أخرى
الالكترونيات والحياة الحديثة
نقطة مقابل نقطة
الجغرافيا فى مائة عام
الثقافة والمجتمع
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)
الأرض الغامضة
الرواية الانجليزية
المشهد الى فن المسرح
آلهة مصر
الانسان المصرى على الشاشة
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة
الهوية القومية فى السينما العربية
مجموعات النقود
الموسيقى - تعبير نفسى - ومنطق
عصر الرواية - مقال فى النوع الادبى
ديلان توماس
الانسان ذلك الانسان الفريد
الرواية الحديثة
المسرح المصرى المعاصر
على محمود طه
القوة النفسية للآهرام
فن الترجمة
تولستوى
ستندال
رسائل واحاديث من الملقى
الجزء والكل (محاورات فى مضمير
الفيزياء الذرية)
التراث الغامض ماركس والماركسيون
فن الادب الروائى عند تولستوى
ادب الأطفال
أحمد حسن الزيات
اعلام العرب فى الكيمياء
- برتراند رسل
ي . رادونمكايا .
الدين هكسلى .
ت . و . فريمان
رايموند وليامز
ر . ج . فوربس
ليستر ديل راى
والتر ألن
لويس فارجاس
فرانسوا دو ماس
د . قدرى حفى وأخرون
أولج فولكف
هاشم النحاس
ديفيد وليام ماكدونالد
عزيز الشوان
د . محسن جاسم الموسوى
أشرف س . بى كوكس
جون لويس
بول ويست
د . عبد المعطى شعراوى
أنور المعداوى
بيل شول وادنبيت
د . صفاء خلوصى
رالف ثى ماتلو
فيكتور برومبير
فيكتور هوجو
فيرنر هيزنبرج
سيدنى هوك
ف . ع ادنيكوف
هادى نعمان الهيتى
د . نعمة رحيم العزاوى
د . فاضل أحمد الطائى

فرنسيس هرجون	هجرة المسرح
هنرى باريوسى	الجحيم
السيد عليوة	صنع القرار السياسى
جاكوب برونوفسكى	التطور الحضارى للانسان
د. روجر ستروجان	هل نستطيع تعليم الاخلاق للأطفال ؟
كاتى ثير	تربية الدواجن
د. سبتسر	الموتى وعالمهم فى مصر القديمة
د. ناعوم بيتروفيتش	النحل والطب
جوزيف داهموس	سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى
د. لينوار تشامبرز رايت	سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء
د. جون شندلر	مصر ١٨٢٠ - ١٩١٤
بيير البير	كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة
الدكتور غبريال وهبه	الصحافة
د. رمسيس عوض	اثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن
د. محمد نعمان جلال	التشكيلى
فرانكلين ل. باومر	الادب الروسى قبل الثورة البلشفية
شوكت الربيعى	وبعدها
د. محيى الدين احمد حسين	حركة عدم الانحياز فى عالم متغير
تأليف : ج. دادلى اندرو	الفكر الاوروبى الحديث (٤ ج)
جوزيف كونراد	الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى
طائفة من العلماء الأمريكيين	١٨٨٥ - ١٩٨٥
د. محمد اسعد عبد الرؤوف	التنشئة الاسرية والأبناء الصغار
د. السيد عليوة	نظريات الفيلم الكبرى
د. مصطفى عنانى	مختارات من الادب القصصى
صبرى الفضل	الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد؟
جابريل باير	حرب الفضاء
انطونى دى كرسبنى	ادارة الصراعات الدولية
وكينيث مينوج	الميكروكمبيوتر
دوايث سوين	مختارات من الادب اليابانى
زافيلسكى ف.س	تاريخ ملكية الاراضى فى مصر الحديثة
ابراهيم القرضاوى	اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة
	كتابة السيناريو للسينما
	الزمن وقياسه
	اجهزة تكييف الهواء

الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعي
سبعة مؤرخين في العصور الوسطى
التجربة اليونانية
مراكز الصناعات في مصر الإسلامية
العلم والطلاب والمدارس

الشارع المصري والفكر
حوار حول التنمية الاقتصادية
تبسيط الكيمياء
العادات والتقاليد المصرية
التذوق السينمائي
التخطيط السياحي
البلور الكونية

دراما الشاشة (٢ ج)

الهيروين والايدز
صور افريقية

نجيب محفوظ على الشاشة

الكمبيوتر في مجالات الحياة

المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية

وظائف الأعضاء من الألف الى الياء

الهندسة الوراثية

تربية اسماك الزينة

كتب غيرت الفكر الانساني

الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)

الفكر التاريخي عند الاغريق

قضايا وملامح الفن التشكيلي

التغذية في البلدان النامية

بداية بلا نهاية

الحرف والصناعات في مصر الإسلامية

حوار حول النظامين الرئيسيين

اللكون

الارهاب

اخناتون

بيتر . رداى

جوزيف داهموس

م . م بورا

د . عاصم محمد رزق

رونالد د . سمبسون

و نورمان د . اندرسون

د . أنور عبد الملك

والث روستو

فريد س هيس

جون بوركهارت

آلان كاسبيار

سامى عبد المعطى

فريد هويل

شاندرا ويكراما ماسينج

حسين حلمى المهندس

روى روبرتسون

دور كاس ماكلينتوك

هاشم النحاس

د . محمود سرى طه

بيتر لورى

بوريس فيدروفيتش سيرجيف

ويليام بينز

ديفيد الدرتون

أحمد الشنوائى

جمعها : جون . ر . بورر

وميلتون جولد ينجر

أرنولد توينبى

د . صالح رضا

م . ه . كنج وآخرون

جورج جاموف

د . السيد طه أبو سديرة

جاليلى جاليلى

أريك موريس ، آلان هو

سيريل الدريد

التوافق النفسى

الدليل البيليوجرافى

لغة الصورة

الثورة الاصلاحية فى اليابان

العالم الثالث غدا

الانقراض الكبير

تاريخ النقود

التحليل والتوزيع الأوركستراالى

الشاهنامه (٢ ج)

الحياة الكريمة (٢ ج)

كتابة التاريخ فى مصر ق ١٩٠

قيام الدولة العثمانية

العثمانيون فى اوربا

مختارات من الآداب الآسيوية

التمثيل للسينما والتلفزيون

سقوط المطر

صناع الخلود

دليل تنظيم المتاحف

كتب غيرت الفكر الانسانى (٣ ج)

الحملة الصليبية الاولى

رواد الفلسفة الحديثة

جماليات فن الاخراج

الكنائس القبطية (٢ ج)

ترانيم زرادشت

النقد السينمائى الأمريكى

الاتصال والهيمنة الثقافية

رحلات فارتينا

التاريخ من شتى جوانبه ٣ ج

مصر الرومانية

السينما الخيالية

السينما العربية من الخليج

الى المحيط

ارثر كيسستلر

توماس ١٠ هاريس

مجموعة من الباحثين

روى أرمنز

ناجى متشيو

بول هاريسون

ميكائيل ألبى

جيمس لفلوك

فيكتور مورجان

اعداد محمد كمال اسماعيل

الفردوسى الطوسى

بيرتون بورتر

جاك كرابس جونيور

محمد فؤاد كوبرلى

بول كونر

اختيار واعداد صبرى الفضل

تونى بار

نادين جورديمر وآخرون

موريس بيربراير

آدامز فيليب

احمد الشنوانى

جوناثان ريل سميث

ريتشارد شاخت

زيجموث هبتر

الفريد ٠ ج ٠ بتلر

اعداد ٠ د ٠ فيليب عطية

ادوارد مرى

هربرت شيلر

الحاج يونس المصرى

ستيفن اوزمنت

نفتالى لويس

بيتر نيكوللز

اعداد موني براح وآخرون

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٢٣٨٦/١٩٩٤

ISBN — 977 — 01 — 3689 — 1

استدراك

الصفحة	السطر	الخطا	الصواب
٧	١٧	ومقالات علم	ومقالات ومحاضرات عن الفلسفة والمنطق والتربية والاجتماع وعلم
١٨	٢١	عظام	عظامه
٢٢	٢٦	بعضا	بعضا .
٢٣	١٨	السلطان	السلطات
٢٤	٢٥	(حكم	حكم
٢٥	١٠	يكوم	ويكرم
٢٩	٧	ان	انه
٣١	٢٤	وفي	وفي
٣٣	٢٤	حيدا	جدا
		ونينيقا	ونينيفا
٣٤	١٢	City late	City state
٤٧	١	لا	اولا
٥٣	١٩	بها حد	بها في حد
٧٩	الاخير	منا	منها
		وكل منا	وكل منها
٨٥	٢٦	كوينزبرى	كوينزبرى (٢٠)
٨٦	٢٥	يستطع	يستطيع
٨٨	١٢	ان	اذا
	٢٨	وظيفة	وظيفة
١٠٠	الاخير	العلاقات	العلامات
١٠٦	٤	الرقى	الرقى
١١٢	٢	هندي يعيش	هندي كان يعيش
١١٣	١٥	واعدام	واعدم .

يحاول المؤلف برتراند راصل وشهرته (راسل) تحديد الصلاحيات اللازمة للسلطة وتلك اللازمة للفرد في ظروف العالم الحديث من منطلق أن للإنسان ملكات ودوافع تبحث عن التنفيس والإبداع، وأن السلطة تسعى لتحقيق الأمان والاستقرار وينتهي الكتاب بنبرة متفائلة بعد أن أبرز كل مشاكل المجتمع الحديث اقتصاديا وسياسيا وصناعيا وإداريا.

برتراند راصل (١٨٧٢ - ١٩٧٠) أديب وفيلسوف وعالم منطق ساهم في تطور المنطق الرياضي الحديث وقد كتب العديد من الأعمال الفلسفية عن مشكلات العلم الطبيعي ويعد راصل بحق أكبر ممثل بارز للوضعية الجديدة المحدث، وكان راصل في السنوات الأخيرة من حياته مساهما فعلا في حركة نزع السلاح العام خدمت مقالاته وخطبه ضد الحرب والدعوة للسلام قضية التقدم الإنساني. والمترجمة أستاذة ورئيسة قسم اللغة الإنجليزية وآدابها بجامعة عين شمس وجامعة القاهرة وجامعة عبدالعزيز سابقا.